الفصل الرابع
القدس في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

تحتل القدس في العقيدة الإسلامية مكاناً بارزاً، فهي حسب كل التفاسير المستندة على السنة النبوية أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. وقد بدأ الاهتمام بالقدس من الجانب الإسلامي عندما نزلت سورة الإسراء على رسول الله ﷺ في وقت مبكر من البعثة التي خص بها اللهُ سبحانه محمداً بن عبد اللهﷺ.

والواقع أن هناك كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الأنبياء، ولاسيما داود وسليمان وعيسى عليهم السلام، وعن علاقتهم بأمكنة العبادة التي كانوا يمارسون عبادتهم فيها. ولعل مكانة القدس تأخذ أبعادها من خلال تتابع رسالة التوحيد التي بدأت منذ آدم عليه السلام وانتهت عند رسول الله محمدﷺ.

فالأنبياء جميعاً لا يخرجون عن سلسلة واحدة مترابطة بالتوحيد ومرتبطة بالتكليف الإلهي لهم، فهم أحق ببعضهم من البشر كافة، وهم أقرب لبعضهم من أي مخلوق، ولو كان على صلة دموية ببعضهم، كصلة الأب والأخ وما شابه ذلك.

وعندما ندقق بمنهج الدعوة عند الأنبياء كافة الذين أوردهم القرآن الكريم نراه منهجاً واحداً، وهو الدعوة إلى عقيدة التوحيد، والأخلاق الاجتماعية الرفيعة، والسلوك الإنساني المتميز. وقد اختارهم الله من بين البشر واصطفاهم على غيرهم، ليكونوا خاصته وأنبياءه، ليبلغوا الرسالة التي لم تنقطع دعوتها حتى خاتم الأنبياء والمرسلين.

فالدين لدى جميع الأنبياء والرسل، هو دين التوحيد وليس سواه، وإذا دققنا في نصوص التوراة ونصوص الإنجيل والقرآن الكريم، وجدنا أن الأنبياء جميعهم ساروا على منهج واحد في الدعوة وهو منهج عقيدة التوحيد ذاته. وقد جاء القرآن الكريم واضحاً أشد الوضوح في الحديث عن دعوة الأنبياء ومنهاجهم في تلك الدعوة.

وحينما يُجِلُّ القرآن الكريم بعض الأماكن من الأرض فإنه بذلك يوضح ارتباط الأنبياء وعلاقتهم المقدسة بها. وسنلاحظ أن الأماكن المقدسة التي أشار إليها القرآن الكريم محدودة أولاً، ولها ارتباط وثيق بالأنبياء ثانياً. وهي إن كانت مقدسة عند هذا النبي فهي مقدسة لدى الأنبياء كافة.

فالعقيدة واحدة والإله واحد لا شريك له والسلوك واحد والدعوة هي ذاتها. كذلك الأمكنة المقدسة هي مقدسة لدى جميع الأنبياء دون استثناء. والذين يحاولون فصل دعوة نبي عن دعوة نبي آخر هم جاهلون أو مشوّهون لحقيقة عقيدة التوحيد.

وفي هذا الإطار لابد أن يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: هل من علاقة بين الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وبين الكعبة أو البيت الحرام؟ هل من علاقة بين موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى وبين البيت الحرام؟ ثم هل من علاقة بين محمد ﷺ وبين المسجد الأقصى؟

يقول الله تعالى في سورة الحج ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ آية 26.

ويقول تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ 127.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران 96 ـ 97.

ويقول تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ الإسراء الآية (1).

فمن خلال آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن النبي إبراهيم هو الذي أقام قواعد البيت الحرام. وهذا البيت يتمتع حسب النص القرآني بما يلي:

1 ـ أنه عتيق قديم وُجد قبل إبراهيم إذ إن كلمة بوأنا تشير إلى ذلك.

2 ـ الغاية من تبيان معالم هذا البيت، عدم الإشراك بالله وتطهيره لمن يرغب بزيارته ليقيم العبادات التوحيدية فيه.

3 ـ وُضع هذا البيت للناس كافة وليس لقوم دون قوم أو لأصحاب عقيدة دون عقيدة لأنه مبارك من الله للناس كافة.

4 ـ الحج إليه ليس مقتصراً على فئة دون فئة. لأن الحج على الناس دون تحديد لهويتهم وعقائدهم.

5 ـ هناك مكانان مقدسان يرتبطان برباط مقدس؛ وهما المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

فمن المعروف أن إبراهيم عليه السلام، هو جدٌّ لمجموعة كبيرة من الأنبياء، فحسب النص التوراتي والنص القرآني فإن إسحاق وإسماعيل هما ولدا إبراهيم، ومعروف أن إسحاق أنجب يعقوب، ويعقوب أنجب يوسف النبي وبقية من يسمون بالأسباط. ومعروف أيضاً أن نسب النبي محمد ﷺ يرجع إلى إسماعيل ثم إبراهيم، فمجموع الأنبياء إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ومحمد صلوات الله عليهم يرتبطون بنسب واحد وهو النسب لإبراهيم. وتتضح عقيدتهم واحدة فالله واحد والدعوة واحدة والسلوك النبوي واحد.

وعندما بنى إبراهيم الكعبة وأوضح معالمها كان المقصود من وراء ذلك أن يتجه جميع نسله إليها باعتبارها الرمز الأوحد القديم لديانة التوحيد. والأَوْلى بنسل إبراهيم أن يرتبط بها قبل ارتباط أي من الناس، على الرغم من أن الكعبة بنيت للناس جميعاً وليس لفئة دون فئة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا يتوجه أصحاب الرسالات الأخرى نحو الكعبة، أليس إبراهيم جد الأنبياء جميعاً؟ أليس إبراهيم هو الجد الأكبر لموسى وهارون وداود وسليمان وعيسى بن مريم؟

إن التوراة تنكر على إبراهيم بناءه الكعبة، وتنكر أن إسماعيل استقر في بداية شبابه حول البيت الحرام، وتوصله مع أمه هاجر إلى جنوب فلسطين وتنقطع أخباره عنا تماماً.

لقد قدس العرب وشعوب كثيرة مكة والبيت الحرام قبل الإسلام بكثير. والعرب بجميع قبائلهم الوثنية والحنفية كانت تقدس البيت الحرام لكونه بيت الله أولاً، ولأن إبراهيم عليه السلام بناه ثانياً. وجميع القبائل العربية كانت تتجه إلى الكعبة وتقدسها، ولكن شعوباً أخرى قدست هذا المكان. فالهنود يزعمون أن روح سيفا إلههم وهو الأقنوم الثالث في العقيدة الهندوسية قد حلت في الحجر الأسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

وكانت الصابئة وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدون الكعبة أحد البيوت السبعة المعظمة. كما كان أسلاف الفرس يقصدون البيت الحرام ويطوفون حوله تعظيماً له وإجلالاً لإبراهيم عليه السلام، لكونه كلدانياً جاء من أور الكلدانيين إلى مكةَ، ثم بنى الكعبة. وكان آخر من حُج منهم ساسان بن بابك. وكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزار زمزم.

ويروي المسعودي في مروج الذهب أن الفرس كانت تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر. وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب إضافة لبعض الجواهر والسيوف والذهب إلى الكعبة وقذف بها في بئر زمزم.

وقدَّسَ الكعبة الفرس من غير الصابئة واحترموها زاعمين أن روح هرمز حلت فيها وكانوا يحجون إليها. وقد ورد في الأخبار أن اليهود أيضاً قدسوها لأنه كما يقولون: إن فيها تمثالاً لإبراهيم وآخر لإسماعيل. وبسبب من عظمة الكعبة وقدسيتها فقد وجد فيها الأحباش منافساً قوياً لما صنعوه في اليمن من بناء لكنيسة

(القليس) فحاولوا مهاجمتها وتهديمها. وقد رأى بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ مريم 58. أن الأنبياء كانوا إذا ذكروا آيات الله خروا سجداً، فإذا سجدوا كانوا يتجهون إلى البيت الحرام. أما زيارة البيت الحرام فقد أورد كثيرون استناداً على ما سمعوه من أحاديث رسول الله ﷺ ومن الأخبار، أن الأنبياء كانوا يزورون البيت الحرام ويحجون إليه لكونه أول بيت للّه ولديانة التوحيد بني على الأرض، والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم عاشوا بل ولدوا في هذه المنطقة العربية المحيطة بمكة. فهي ليست بعيدة عن ديارهم وأقوامهم، وعلى اعتبار أن جلهم ينتسب إلى إبراهيم وينتمي إلى عقيدة التوحيد، فمن الواقعي أن يسيروا على نهج إبراهيم ويلبوا دعوته في الحج إلى بيت الله الحرام.

فإسحاق ويعقوب ويوسف ومن بعدهم موسى وداود وسليمان. وكذلك شعيب وأيوب وصالح ويونس جميعهم يرتبطون بعقيدة التوحيد، ويرتبطون بإبراهيم، ويرتبطون بالبيت الحرام الذي عمّره إبراهيم ودعا الناس للحج إليه.

هذا ما يمكن أن نوجزه بالنسبة للعلاقة بين إبراهيم والأنبياء وبين البيت الحرام. ونعود لدراسة العلاقة بين هؤلاء الأنبياء وبين المسجد الأقصى، فهي علاقة معقدة تحتاج إلى توقف وتبصر.

جاء في القرآن الكريم في سورة الإسراء الآية الأولى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾.

فقد عرفنا شيئاً عن قدسية البيت الحرام وكيف بناه النبي إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد جاءت آيات كثيرة تتحدث عن البيت الحرام والحج والشعائر المتعلقة به.

فإذا كان هذا البيت الحرام على ما هو عليه من هذه القدسية والمكانة، فكيف ربط القرآن الكريم بينه وبين المسجد الأقصى؟ لماذا اختار الحق سبحانه هذا المسجد

دون غيره من الأماكن ليربطه بالمسجد الحرام؟ ألا يوجد مكان آخر في الأرض أهم منه من حيث القدسية ليربطه بالبيت الحرام؟

الحقيقة أن هذا الربط الذي لم يأت مثله في القرآن الكريم له أسبابه وأسراره، فالمسجد الأقصى في العقيدة الإسلامية يشكل مكاناً مقدساً يعادل في قدسيته البيت الحرام. ولكن من أين جاءت هذه القدسية؟ هل جاءت بسبب قدَمه؟ أم هل جاءت بسبب علاقة عدد كبير من الأنبياء به؟ ولماذا أطلق الله سبحانه عليه اسم مسجد؟ هل كان يصلي فيه الموحدون؟ هل كانوا يسجدون فيه؟ وهل له من الصفات ما تؤهله ليسمى مسجداً؟.

يقول تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ سورة ص الآية 21 ـ 22.

ويقول تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ من آل عمران الآية 37.

ويقول تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ آل عمران 39.

ويقول تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم آية 11.

فنرى أن كلمة محراب وردت أربع مرات مرة حين الحديث عن داود عليه السلام، ومرة حين الحديث عن مريم، ومرتين حين الحديث عن زكريا.

فالمعروف أن معابد اليهود لا يوجد فيها محاريب. وداود كما هو معروف نبي من أنبياء بني إسرائيل، وكذلك مريم فهي من بني إسرائيل، لكن الآية تقول إنها كانت تتعبد في معبد فيه محراب، وكذلك زكريا وهو من أواخر أنبياء بني إسرائيل وعاصر مريم والدة السيد المسيح، فالآية تشير إلى أن زكريا كان قائماً وهو يصلي في محراب، وعندما خرج إلى قومه بعد البشرى له بولادة يحيى فقد خرج من المحراب

أيضاً. فهؤلاء الأنبياء كانوا يصلون في معبد لـه محراب. وجميع الدراسات إضافة للإنجيل بشتى فروعه وأشكاله تشير إلى أن داود كان يقيم في جبل الزيتون المشرف على القدس، وأن المعبد الذي كان يتعبد فيه زكريا هو في بيت لحم أو في القدس. وتقول بعض المصادر الإنجيلية إن مريم وزكريا وغيرهما من الرسل والصالحين كانوا يتعبدون في هيكل الرب أو معبده في القدس.

ونتذكر أن السيد المسيح عليه السلام دخل معبد الرب وطرد منه اللصوص وبائعي الحمام، وقد ورد ذلك في الإنجيل، يقول إنجيل لوقا 19/ 45 ـ 47: [ولما دخل الهيكل أبتدأ يُخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه قائلاً لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلوات وأنتم جعلتموه مغارة لصوص] وفي إنجيل متّى جاء في 21/ 12 ـ 13. [ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص] فهذا الكلام الذي ورد يدل بشكل قاطع على أن هناك معبداً كان للصلاة وليس فيه من الأوثان أي وثن أو صنم، هو معبد تقام فيه الصلاة، وتحديداً في محرابه.

أما بالنسبة لكلمة المباركة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ـ فقد أجمع المفسرون المسلمون على أن الأرض المباركة هي أرض الشام، وخص الله سبحانه المسجد الأقصى وما حوله بالمباركة، باعتباره المركز القدسي المبارك لهذه البلاد. فإبراهيم ولوط ينجيهما الله إلى جزء من الأرض المباركة وهي أرض فلسطين. ويقيم إبراهيم في الخليل التي لا تبعد عن القدس كثيراً، وتنقّل إلى الحجاز ومصر ثم عاد ليدفن فيها بعد موته. فلإبراهيم علاقة وطيدة بهذه الأرض المباركة هي علاقة العقيدة وعلاقة التوحيد. ولو لم تكن هذه الأرض أرض توحيد لما مكث فيها إبراهيم ولما استقر بين أبناء شعبها، ولما اختار أرضها ليدفن فيها زوجته سارة، وليموت هو فيها ويدفن في ترابها. ولعل رحلة إبراهيم من الخليل إلى الكعبة ومن الكعبة إلى الخليل دليل هام على الربط القدسي بين البيت الحرام والمسجد الأقصى الذي هو مركز الأرض المباركة، رحلة إبراهيم هي إسراء أرضي،

ورحلة محمد ﷺ من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى هي إسراء سماوي. فهنا يكمن اكتمال الدائرة القدسية بين رحلة الجد الأولى من الأرض المباركة إلى المسجد الحرام، ورحلة الابن العكسية من المسجد الحرام إلى الأرض المباركة.

لقد أشرنا عند بحثنا في عقيدة الكنعانيين ومعابدهم إلى أن إبراهيم عليه السلام قد التقى بملك القدس ملكي صادق، وبارك الأخير إبراهيم، وقد وُصف ملكي صادق بأنه ملك موحّد يؤمن بإله واحد. والواقع لو أن إبراهيم وجد ملكي صادق من الرافضين لدعوة التوحيد لما مكث في الأرض المباركة، أو لكان غادرها كما غادر أور الكلدانيين حفاظاً على عقيدته ودينه. ولا شك في أن القدس وملكها اليبوسي (ملكي صادق) حفلت بوجود المعابد ذات العلاقة بالعقيدة الكنعانية التي تقبلها إبراهيم وقبلت هي بدورها عقيدة إبراهيم. فمباركة الله هذه الأرض سابقة على وجود إبراهيم باعتبار أن القرآن الكريم صرح بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

ماذا تقول المراجع الإسلامية بشأن القدس؟

حفلت القدس بالأحاديث استناداً على ما قاله رسول الله ﷺ من أحاديث، واستناداً على أخبار تناقلها الرواة منذ ما قبل البعثة المحمدية.

فقد روى الإمام البخاري والإمام مسلم حديثاً عن أبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ أن المسجد الأقصى بني بعد المسجد الحرام بأربعين سنة. وقد دلت أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن المسجد الحرام قد بناه أول من بناه النبي آدم عليه السلام، وقد روي أن الله سبحانه أمر آدم ببناء المسجد الأقصى والتنسك فيه، وربما كان أحد أولاد آدم قد بناه بعد بناء الكعبة بأربعين سنة.

وعلى الرغم من ذلك لم يثبت بالدليل القاطع أن إبراهيم أوجد صلة بالمسجد الأقصى، وكذلك الأمر بالنسبة لابنه إسحاق ولحفيده يعقوب.

وكما اندثرت معالم البيت الحرام حتى جاء إبراهيم فأوضحها، فليس مستبعداً أن يكون الأقصى اندثرت معالمه حتى جاء المسلمون وأظهروها، على الرغم من

وجود احتمال أن سليمان عليه السلام بنى مسجداً فوق البقعة التي كان فيها المسجد الأقصى. لقد بقيت بقعة المسجد الأقصى هي البقعة التي أوحى الله إلى الأنبياء باختيارها مكاناً للعبادة منذ آدم عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء والأولياء والعبّاد، وأن أساس البناء الأول ثابت في هذه البقعة المباركة وكل من تتابع على إعمار البقعة أو بنائها وإصلاحها أو تطهيرها، إنما فعل ذلك على الأساس القديم. وقداسة هذه البقعة (المسجد الأقصى) لم تكن لنبي من الأنبياء ولا لأمة من الأمم فقد اختارها الله منذ خلق الخلق لعبادته، أن تكون معبداً للموحّدين، ويدل على قدم التقديس ما جاء في حديث أبي ذر أنها ثاني موضع اختاره الله للعبادة.

وهنا لابد من التوقف عند معنى التقديس، وما هو المقدس البشري والمقدس الإلهي حسب ما جاء في القرآن الكريم.

فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ سورة الإسراء الآية (1).

ففي القرآن الكريم لا يوجد أي مسجد باركه الله سوى هذين المسجدين. وقد ذُكر مسجد رسول الله ﷺ في المدينة في القرآن الكريم. ولكن الحديث القرآني عن مسجد رسول الله ﷺ جاء لاحقاً إذ إنه بُني بعد أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. فالربط جاء بين البيت الحرام والمسجد الأقصى لكونهما أقدم مكانين مقدسين اختارهما الله للعبادة.

فالتقديس لهذين المكانين تقديس إلهي وليس تقديساً بشرياً، والتقديس البشري يظل تقديساً وضعياً بشرياً فهو قابل للتغيُّر والتحول والاندثار. فيمكن لأي فرد أو أي إنسان أن يبني معبداً في أية أرض وينشئ فيه الأصنام أو التماثيل أو الرموز الموحية للمعبود، وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجموع. فيقوم التقديس على ما صنعه هذا الإنسان أو هذا المجموع من معابد وأصنام وأوثان ورموز. فهذا المعبد وهذا التقديس البشري قابلان للفناء والاندثار، خاصة إذا أخذنا في الحسبان تطور مفهوم المعبود وتغيّره من المحسوس إلى المجرد.

أما المسجد الحرام والمسجد الأقصى فهما آيتان من الكتاب الكريم قدسهما الله قبل أن يقدسهما البشر. وبمعنى آخر فإن القدسية من صنع الخالق. وهي خاصية له وليست لبني البشر.

وإذا عدنا إلى حيثيات التقديس الإلهي لهذين المكانين فلابد لنا من العودة إلى الآية التي افتتح الله بها سورة الإسراء، ولابد من الوقوف بشكل دقيق عند الآيات التسع الأولى من سورة الإسراء.

يقول تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ صدق الله العظيم الإسراء 1 ـ 9.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ الإسراء 104.

أجمع جميع المفسرين أن سورة الإسراء مكية نزلت على رسول الله ﷺ وهو في مكة، وأكثر التواريخ اتفاقاً ما قاله البيهقي عن ابن شهاب رضي الله عنه قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بستة عشر شهراً، وبعضهم قال قبل الهجرة بسنة. على أية حال فالمتفق عليه أن سورة الإسراء مكية. وعلى هذا فلدينا أسئلة كثيرة حولها يجب أن يجاب عنها وتوضح معالمها.

1 ـ عندما نزلت هذه السورة وصفت البيت الحرام بالمسجد الحرام ووصفت بيت المقدس بالمسجد الأقصى. وقد كان المسجد الحرام يعج بمئات الأصنام وعلى رأسها هبل والعزى واللات ومناة وأساف ونائلة. ويقال إنه كان في البيت الحرام أكثر من 360 صنماً على عدد قبائل العرب. وكان الأقصى آنذاك محتلاً من قبل الروم، وفي القدس معبد مهمل بينما كانت كنيسة القيامة هي المكان المقدس بالنسبة للرومان آنذاك.

فبما أن البيت الحرام كان يعج بالأصنام، فكيف يوصف قرآنياً بالمسجد الحرام؟ وكذلك كيف يوصف بين المقدس بالمسجد الأقصى وهو مهمل لا أحد يدري بقدسيته؟

الواقع أن رسول الله ﷺ تعرض لأذى قريش فالتجأ إلى الطائف، ولكن أهل الطائف أيضاً لاحقوه، فالتجأ إلى الله بالدعاء أن يفرج كربه. وبعد عودته مباشرة نزلت عليه سورة الإسراء، وأُسري به من مكة إلى بيت المقدس إكراماً له وتخفيفاً من معاناته، وتبشيراً له بالنصر القادم.

2 ـ عندما نزلت السورة، أي سورة الإسراء، على قلبه ﷺ كان ضعيفاً وحوله المسلمون ضعفاء لا يستطيعون المقاومة أمام جبروت قريش وطغاتهم، فكانوا عبيداً وقليلي القوة والحيلة والبيت الحرام يعيش فيه أبناء قريش فساداً.

3 ـ تسمّت هذه السورة بتسمية ثانية فهي سورة بني إسرائيل.

4 ـ على الرغم من اسمها المعروف سورة الإسراء فإنها لم تتحدث عن الإسراء إلا في أولها. ومتابعة الآيات فيها كانت عن بني إسرائيل وليس عن الإسراء، فما العلاقة بين الآية الأولى وبين بقية الآيات؟

ولو عدنا إلى الأحداث التي مرت بها سيرة رسول الله ﷺ لوجدنا أن المسلمين انتصروا على قريش وعادت مكة إلى المسلمين، ثم أخلي البيت الحرام من الأصنام والأوثان بعد أن كسرت وحُطمت وطُهر البيت الحرام من كل مظاهر الوثنية والخمور والنجاسات، ورفع بلال صوته ليؤذن بالناس ليصلوا في هذا المسجد العظيم.

والواقع أن البيت الحرام كاسم رافق سيرة النبي إبراهيم عليه السلام، بينما أطلق اسم المسجد الحرام وصار اسماً لمسمى بعد تحرير مكة على أيدي جيش المسلمين بقيادة الرسول محمد ﷺ.

فوصف القرآن البيت الحرام بالمسجد الحرام جاء إرهاصاً ربانياً للمستقبل بأن هذا البيت سيُحرر من الأوثان ويصبح مسجداً للموحدين من جديد.

وإذا نظرنا أيضاً إلى وصف القرآن الكريم بيت المقدس بالمسجد الأقصى لرأينا أنه إرهاص للمستقبل بأن هذا المكان المقدس سيحرره المسلمون. وفعلاً حُرّر بيت المقدس على أيدي المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ بست سنوات ليس أكثر، أي في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة بسنتين.

إن الله سبحانه وتعالى أودع في قرآنه العظيم أسراراً تعجز عن حلها العقول وتقف أمامها حائرة. فالقرآن الكريم كتاب مفتوح على الكون وما وراء الكون. فيه من الأحكام ما ينظم المخلوقات جميعها، وفيه من الاستشراف المستقبلي ما تبنى عليه عمارة الأرض. تحدث عن الماضي المتحرك بالبشر والأقوام والأفراد وربطه بالآتي القريب والبعيد، ليعرف المسلمين وغيرهم طريق حياتهم، ويبين لهم سبيل انتصارهم وتحقيق دعوتهم، ويدلهم على قراءة الواقع كي يتحاشوا السقوط أو كي يقفزوا نحو غاياتهم السامية.

هكذا في سور القرآن الكريم كلها. ولكن هذا القرآن حوى من السور ذات الخصوصية التي تحدد المصائر والسبل الوجودية والنهايات البشرية ما لم تحوِه سور أخرى. فكانت منها سورة الأعراف، وكذلك الإسراء على سبيل المثال.

فهي - إن درسنا تاريخ نزولها - وأسبابه وما حوته وجدنا فيها معجزة. وفيها قَدَرُ الله الذي قدَّره ولا مناص من وقوعه. ولو درسنا ما فيها من استشراف للمستقبل أدركنا أن ما يجري للمسلمين وأوطانهم من عدوان وغزو واحتلال، وما يقومون به من صد ورد على العدوان والغزو والاحتلال ليس شاذاً عن السياق التاريخي للصراع بين المسلمين وأعتى وأفسد مجموعة بشرية شريرة على وجه الأرض، وليس شاذاً عن المسار الطبيعي للصراع الأبدي بين الحق والباطل والخير والشر. تلك طبيعة الوجود البشري على هذه الأرض حتى يرث الله الأرض وما عليها.

طرفان نقيضان كل التناقض في الفكر والسلوك والنفسية. نقيضان كونيان لا ينحصران في جزيرة نائيه. كل منهما له تأثيره المباشر على مستوى الوجود.

وكما لله سبحانه أنبياؤه وعباده وأولياؤه وجنوده فإن للشيطان جنوده وأولياءه، وهذا صراع مطلق بين وجهين للكون وبين نمطين متضادين من البشر. كل له حلفاؤه وكل له عقيدته، ولن يكون هناك طرف ثالث يحار في موقفه. فإما أن يكون مع الحق أو يكون مع الباطل، وساعتئذ ترى البشرية تنقسم إلى قسمين متصارعين كل منهما يسير وفق صلاحه أو فساده أو باطله.

وهنا تتجلى لنا سورة الإسراء لتحفر في العقول والماضي والحاضر والمستقبل، ولتحدد أن للصراع الكوني بين الحق والباطل مركزاً جغرافياً في هذه الأرض، تندمج فيه مركزية العقيدة ومركزية الرمز المادي والمعنوي المقدس. مركزاً يتصادم فوقه من يمثل رأس الحربة في قوى الشر والشيطان والفساد، ومع من يمثل طليعة الأمة الإسلامية في قوى الخير والرحمن.

ولكي تتكامل صورة الصراع تأتي أحاديث رسول الله ﷺ لتؤكد حتميته في أرض القدس، وحتمية انتصار عباد الرحمن على حلفاء الشيطان. حتمية انتصار الحق على الباطل وانتصار الكلمة الإلهية المحفوظة على أخطر عملية تحريف وتلفيق على الله والأنبياء والإنسانية. إن كل ما تشاهده العيون، وكل ما تعاني منه النفوس من قهر وقتل للأبرياء، واغتصاب للحقوق، وانتهاك للأعراض في أرض الإسراء، لا يعني أن قوى الشر الشيطانية تنتصر على الحق والخير. فكل ما تقوم به ليس إلا مقدمة لا يعرفون نهايتها، وإن عرفوا فإنهم محكومون للغيب الذي لا يعرفون مقاصده وتسييره التاريخ والقرون.

فهم حكموا على أنفسهم في هذا المسير، والله بعلمه المسبق يعرف أنهم محكومون لنهاية قدّرها الله عقاباً لهم لما اقترفوه من فساد وخيانة لتعاليم موسى والأنبياء، بل نقضهم عهد الله. سورة الإسراء هي سورة بني إسرائيل، وهي في آياتها الأولى سورة المسجد الأقصى، سورة إسراء رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وهي سورة الإرهاص المستقبلي لنهاية الصراع بين عباد الله المسلمين وبين وبني إسرائيل ومن دخل في دائرتهم من اليهود والمتهوّدين.

لقد عرّفنا القرآن الكريم على بني إسرائيل وحياتهم ونفوسهم وسلوكهم عبر سور كثيرة منذ أن ظهروا إلى الوجود حتى يومنا هذا. وقد مثلوا عبر هذه المسيرة الطويلة قمة الفساد في الأرض، ومثلوا نموذج الشر الفاحش بين الأشرار. لم تستطع على مكرهم الجيوش وإن كسرتهم وسبتهم، ولم تتغلب على فسادهم كل قوى الخير السابقة على الإسلام من أنبياء ومصلحين، وظلوا على فسادهم المستشري إلى أن حان وقت انقضاضهم على الأرض المباركة ـ فلسطين ـ مستغلين ضعف المسلمين ووقوعهم تحت وطأة القطرية والوطنية الضيقة، وتقليد الغرب وموالاته وضياع الهوية العقيدية من نفوسهم.

لكن هذا الانقضاض لا يعني الخلود والأبدية. وهم يدركون قبل غيرهم أن ساعةً يأتي فيها الله بجنوده وعباده كفيلة بانكسارهم وتدمير علوهم وإنهاء فسادهم. وكفيلة بإعادة كل شبر من الأرض المباركة إلى دائرة عباد الله المسلمين.

الأرض المباركة وعلاقتها بالقرآن الكريم:

ثمة أسئلة يطرحها كثير من المسلمين عن العلاقة بين الأرض المباركة ـ فلسطين ـ والقرآن الكريم والدين الإسلامي بشكل عام:

ما العلاقة بين المسلمين وأرض فلسطين؟ وهل يشكّل القرآن الكريم المصدر الأساسي لتلك العلاقة؟ لماذا لم يرد اسم القدس في كتاب الله والسنة النبوية وورد اسم بيت المقدس؟ هل تعتبر الصخرة الواقعة تحت قبة مسجد الصخرة مقدسة أو مشرفة أو مباركة؟.

وقفة أولى:

يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ فهذه الآية تشير إلى حادثة الإسراء التي وصلنا خبرها الصحيح في الصحيحين والأسانيد وسيرة رسول الله ﷺ. وهذه الحادثة جرت في مكة، ونزلت السورة المسماة باسم الحادثة أيضاً في مكة، فهي سورة مكية وليست مدنية. في الآية تحديد لمكانين واضحين هما المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

وعند نزول سورة الإسراء كان النبي ﷺ ضعيفاً هو وأصحابه. وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً يمثلون القبائل العربية كافة. بمعنى أن الكعبة وما حولها لم تكن مكاناً للسجود، بل كانت مكاناً لعبادة الأصنام وطقوس الجاهليين من عرب قريش وغيرهم. إذاً لماذا أطلق اسم مسجد على مكة وما حولها؟

لو نظرنا إلى آيات أُخَر وخاصة الآيات التي تتحدث عن علاقة النبي إبراهيم عليه السلام بهذا المكان لوجدنا أنها تحفل باسم البيت الحرام، والبيت المحرم أكثر مما حفلت باسم المسجد الحرام. ففي سياق قصة النبي إبراهيم ورد قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾. وقوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾.

وقد ورد قوله ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ في عدة مواقع. وجميعها تأتي حسب التسلسل الزمني لنزول القرآن الكريم بعد سورة الإسراء. فقال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ وغيرها. وقد صار يطلق على البيت الحرام اسم المسجد الحرام بعد بدء البعثة ونزول الوحي على قلب رسول الله ﷺ.

وعودة إلى الآية الأولى من سورة الإسراء إلى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ندرك أن إطلاق هذا الاسم لا يعني أنه لم يكن مسجداً، ونعتقد أن الأصل فيه هو المسجد الحرام والوثنية طارئة عليه، إذ إن إبراهيم عليه السلام، رفع قواعد البيت وأمر أن ينادي بالحج. لأن هذا البيت أسس للعاكفين والركع السجود. وهذا بنص الآية القرآنية، فهو مسجد للساجدين.

وهذا يعني أن الآية الكريمة بشَّرت رسول الله ﷺ بأن هذا المكان المقدس سيطهر من الوثنية الطارئة، ويعود كما كان في عهد إبراهيم عليه السلام، مسجداً طاهراً للرُّكَّع السجود والعاكفين وكل المتعبدين لله سبحانه.

فإذا كان هذا هو حال المسجد الحرام فما هي حال المسجد الأقصى؟

لقد كانت فلسطين خاضعة لحكم الرومان، وكانت النصرانية هي السائدة آنذاك، وأهم المقدسات في فلسطين آنذاك الكنائس الرئيسية المرتبطة بالنصرانية، وهي كنيسة القيامة وكنيسة المهد والكنائس الأخرى في الناصرة، وكان اليهود آنذاك يشكلون أقلية لا تُذكر، ولم يكن لهم آنذاك معبد رئيسي، بل كانت هناك بعض الكنُس الصغيرة جداً يقيمون فيها طقوسهم. أما المسجد الأقصى فلم يكن قائماً كبناء له معالم وأركان عمرانية، وعلى هذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف حدد القرآن الكريم مكانين مقدسين في الآية ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ ولماذا أطلق اسم المسجد الأقصى.

وقبل أن نوضح المعالم الخاصة بهذا المكان لابد أن نشير إلى أن الأرض التي يقع فيها هذا المكان أطلق الله سبحانه عليها الأرض المباركة.

يقول تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ويقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ سبأ الآية 18.

فالأرض مباركة منذ القدم حتى قبل نجاة النبي إبراهيم عليه السلام إليها. والأرض المباركة هي بيت المقدس وما حوله. وقد ظلت مباركة وستبقى كذلك لأنها اختيار رباني وحاشا أن يغير الله ناموسه.

والقدس ليست المسجد الأقصى فحسب، أو تلك المدينة المسورة على بضعة آلاف من البشر، فهي الأرض المفتوحة على البركة الإلهية ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ ـ وحوله تعني فلسطين أولاً وما جاورها ثانياً، حتى تصل المسجد الحرام ثالثا. وقد تكررت مباركة هذه الأرض وما حولها في عدد من الآيات القرآنية الأخرى، لتؤكد أن المباركة ليست عابرة بل هي ثابتة منذ الأزل حتى يرث الله الأرض وما عليها.

والآية الثانية جاءت في سياق الحديث عن سبأ التي منح الله أهلها الجنان لكنهم أعرضوا عن التوحيد وكفروا فبدل الله نعيمهم إلى قحط وقلة غلال، وأرسل الله عليهم سيل العرم، فدمر جنانهم وأباد مزروعاتهم. وقد جعل الله سبحانه بينهم وبين القرى التي بارك فيها محطات آمنة من القرى والمدن. وظاهر القول: إن بين سبأ وبين الأرض المباركة قرى ومدناً كثيرة، وأهمها وأكثرها أمناً مكة ـ يثرب ـ قرى الشام حتى تصل إلى الأرض المباركة.

ويَلفت انتباهنا قوله تعالى: القرى التي باركنا فيها. فهي تعني أن هناك قرى مباركة وليست قرية. وبمعنى آخر، لو كانت المباركة تخص بيت المقدس وحده لجاء على ذكره القرآن الكريم وحده، ولكنه أشار إلى قرى، وهذا يُعيدنا إلى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ لتؤكد أن المباركة تعم أرض فلسطين، وقد تتجاوزها إلى جوارها.

ويقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ الأنبياء 81.

فقد أراد الله سبحانه أن تكون الأرض المباركة مهوى أفئدة الأنبياء والرسل جميعاً، ولهذا سخَّر الله سبحانه الريح تجري بأمره لتنقل سليمان إليها ينشر فيها دعوة التوحيد، فإذا اعتبرنا أن أول انتشار ملموس لعقيدة التوحيد الإسلامي بدأ على يد إبراهيم عليه السلام، فإن للأرض المباركة الدور الأهم فيها، لأن الله سبحانه اختارها لتكون ملجأ إبراهيم بعد أن لاقى ما لاقى على يد الوثنيين من قومه.

نستنتج أن مباركة الأرض ـ أرض فلسطين ـ سابقة على النبي إبراهيم. وهذا يعني أن هناك أسباباً لهذه المباركة.

بعض المفسرين قالوا إن المباركة جاءت بسبب وجود عدد كبير من الأنبياء ممن لهم علاقة بالقدس والأرض المباركة، وخاصة أنبياء بني إسرائيل، لكن المباركة سبقت إبراهيم عليه السلام، ولم يكن بنو إسرائيل قد وجدوا على أرض الواقع، ولم يكن بعدُ أي نبي من أنبياء بني إسرائيل قد ظهر إلى الوجود. وإذا كان المسجد الأقصى جزءاً من هذه الأرض المباركة فإن علاقته تنحصر بالله

سبحانه؛ بمعنى أن المباركة سابقة على وجود الأنبياء. وهي مباركة للعالمين وليست محصورة بفئة دون فئة، والمباركة للعالمين تحمل من المعاني والأسرار والأسباب ما لا يعرفها سوى الله سبحانه.

أما المسجد الأقصى فهو قديم قدم أوائل الخلق. وقد روى الإمام البخاري والإمام مسلم حديثاً عن أبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ أن المسجد الأقصى بُني بعد المسجد الحرام بأربعين سنة.

ونص الحديث ورد في الجزء الخامس من صحيح البخاري في باب كتاب بدء الخلق، ورقم الحديث 3010. يقول: «حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش حدثنا إبراهيم التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال المسجد الحرام قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلِّه، فإن الفضل فيه».

وقد ورد الحديث بطريق آخر يقول: حدثني عمر بن حفص حدثنا أبي، حدثنا الأعمش. . . . الخ.

فالمسجد الأقصى موجود منذ زمن بعيد، وقد أشارت أحاديث رسول الله ﷺ إلى أن المسجد الحرام قد بناه أول من بناه النبي آدم عليه السلام. وروي أن الله سبحانه أمر آدم ببناء المسجد الأقصى والتعبد فيه. وقيل ربما كان أحد أولاد آدم قد بناه بعد بناء الكعبة بأربعين سنة.

وكما اندثرت معالم البيت الحرام، حتى أمر إبراهيم عليه السلام فأوضحها، فليس مستبعداً أن يكون الأقصى قد اندثرت معالمه حتى جاء المسلمون وأظهروها.

ولذلك عندما سمّي بالمسجد الأقصى كان المقصود - والله أعلم - إعادته إلى سابق عهده حيث كان مسجداً يصلي به أبناء آدم وأحفاده من المؤمنين. والأمة الإسلامية التي بُعث إليها محمد ﷺ أحق الأمم في إظهار أماكن التوحيد التي أسس

بنيانها أول الخلق آدم عليه السلام. . ولذلك لم نر كلمة مسجد تطلق إلا على أماكن عبادة المسلمين.

ولعل في ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى قبل أن يعودا مسجدين يؤدي المسلمون فيهما شعائرهم التعبدية إرهاصاً للنبي ﷺ وللمسلمين بأنهما سيفتحان على أيدي المسلمين، ليكونا مكانين مقدسين للعبادة الإسلامية، وهذا ما كان فيما بعد.

لماذا اختار الله سبحانه أرض فلسطين لتكون ملجأ للنبي إبراهيم والنبي لوط عليهما السلام؟ لماذا لا تكون أرض أخرى محطة نجاه له ولابن أخيه لوط؟ هل كانت أرض فلسطين تمتلك من الأسباب ما يجعلها ملجأً لإبراهيم وغيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام؟

الواقع إن من الأسباب ما هو كثير، منها ما ندركه. ومنها ما لا ندركه، منها ما نستطيع ربطه بواقع الصراع بين أمة الإسلام واليهود، وهذا الصراع يتأسس منذ أن نجى الله إبراهيم إلى الأرض المباركة، ثم منذ إقامة أركان البيت الحرام في مكة.

قلنا إن الآية الأولى من سورة الإسراء تحدد مكانين مقدسين لله؛ هما المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وقلنا إن الله سبحانه بارك فيهما منذ زمن بعيد، قبل أن يظهر إبراهيم عليه السلام على الوجود.

وطبيعي أن ينجي الله إبراهيم إلى مكان اختاره عز وجل مسبقاً. وقد انقسمت علاقة إبراهيم بالمكانيين إلى مهمتين، الأولى هي نشر دعوته في الأرض المباركة، والثانية إقامة أركان المسجد الحرام في مكة.

وقد اختار سبحانه الأرض المباركة أولاً لتكون ملجأ نجاة للنبي إبراهيم؛ لأنها مباركة، وفيها المسجد الأقصى الذي اندثرت معالمه وخبأ أمر إقامته من جديد اللهُ سبحانه إلى حين ظهور الدعوة الإسلامية.

ما يتضح من الآيات الكريمة التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم أنه ليس هناك من علاقة بين إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى تحديداً، ولا توجد أيَّةُ آية تشير إلى ذلك، وعلاقته جاءت بشكل عام بالأرض المباركة.

ومن خلال ربط معاني آيات القرآن الكريم ندرك أن أمر الله إبراهيم بإقامة قواعد البيت الحرام لم يكن أمراً مفاجئاً، بل مهد له بأن بعث ابنه إسماعيل وأمه إلى واد غير زرع عند البيت المحرم. وهذا البيت الذي طمسته الرمال كان معروفاً بقدسيته لمن سبق إبراهيم من رسل وأنبياء.

ونلاحظ هنا الترتيب الإلهي للأحداث؛ حيث إن إسماعيل يمكث في مكة ويتكاثر نسله، وبعد مئات السنين يبعث الله سبحانه من نسل إسماعيل آخر الرسل وخاتم الأنبياء محمد ﷺ. وما بين النبي إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ عشرات الأنبياء والرسل، ومنهم من أرسل لبني إسرائيل، ومنهم من أُرسل لأقوام أخرى مثل قوم عاد، وثمود، ولكن هؤلاء الأنبياء لم يرتبطوا بالمسجد الأقصى، ولم تشر أية آية لأي ارتباط بينه وبينهم.

ينتقل بنا القرآن الكريم إلى الآية الثانية حيث يقول سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ تأتي هذه الآية مباشرة بعد الآية التي تتحدث عن إسراء رسول الله ﷺ، وكأن الآيتين لا رابط بينهما. وظاهر الأمر هو كذلك، ولكن المسألة أعمق بكثير من ظاهر النص.

لقد جاءت الآية الثانية لتمهد للحديث المتعلق بالأقصى وبني إسرائيل، . وحتى يعرف القارئ المقصد من الآيات التي تليها كان لابد من التعريف بالنبي موسى وكتابه الذي أنزل لهداية بني إسرائيل، الذين سوف يحاربون الله وأوامره وينحرفون عن أمر الله ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾. ثم يسطون على المسجد الأقصى ويفسدون في الأرض ويعلون. ومن الطبيعي أن تأتي الآية الثانية مباشرة بعد آية الإسراء لأن مدلولها يشير إلى أن بني إسرائيل كُلفوا من قبل رب العالمين ونبيهم موسى بالاستقامة وعدم الإفساد، وموسى عليه السلام ليس رجلاً قادماً من المجهول، فهو من ذرية الذين حملهم نوح معه على سفينته. وإذ يقول تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فالأقرب إلى العقل أن موسى عليه السلام وبني إسرائيل هم من ذرية أولئك الذين حملهم الله مع نوح.

ولكن الذين حملوا مع نوح أنجبوا وتكاثروا، والله سبحانه أخبر نوحاً أنه سيكونون منهم الصالحون والكافرون.

يقول تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هود 48.

فالسلام والبركات على أمم ممن مع نوح، ومن للتبعيض، ويعني ذلك أن السلام والبركات لن تكون على كل من حُمِل مع نوح. فهناك أمم ممن حمل مع نوح سيكونون ضالين ويعذبهم الله.

وعندما نعود إلى قوله ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، نرى أن موسى عليه السلام هو المقصود، و﴿ذُرِّيَّةَ﴾ تفسير وإيضاح لموسى. وسلسلة نسل نوح لابد أن تمر بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق. وسلسلة الأنبياء إضافة لطبيعتها العقيدية فإنها أيضاً سلسلة مترابطة بالإرث البشري. وهنا لابد من الإشارة إلى أن من حمل مع نوح لم ينجب صالحين فحسب بل أنجب فاسدين. فموسى نبي مرسل موحد وبنو إسرائيل فاسدون ومفسدون وهم من ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

فهذه الآية توضح لم جاءت الآية السابقة قبلها ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وتوضح أن بني إسرائيل لم يأتوا من كوكب آخر، لقد بعث الله لهم موسى عليه السلام، وآتاه الله كتاباً، يأمرهم به ألا يتخذوا من دون الله وكيلاً.

وبعلم الله المسبق علم رب العزة أن بني إسرائيل سيلقون كتاب موسى جانباً وسيتخذون غير الله وكيلاً وسيفسدون، وسيكون للمسجد الأقصى علاقة قوية وأساسية في إفسادهم وعلوهم.

أما تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فقد تعددت الوجوه فيه. قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: القضاء يحتمل الحكم أي، ليحكم ما قد علم أنه

يكون كائناً أوليتم أمراً كان قد أراده، وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة، وتأتي بمعنى الكتابة في اللوح المحفوظ كقوله تعالى: وكان أمراً مقضياً.

قال القرطبي: فإذا كان القضاء يحتمل هذا فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله، لأنه إن أريد به الأمر، فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك؛ لأن الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء.

وقال قتادة: قضينا أي حكمنا، فتكون إلى بمعنى على. وقُرىء ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾، وعلى تفسير قضينا بحكمنا، يكون المراد في الكتاب، اللوح المحفوظ.

والأرجح، أن الكتاب في الآية الرابعة، هو المكتوب في اللوح المحفوظ، لأن الفعل (تفسدن) يدل على زمن آت، وهذا الزمن لا يعلمه إلا الله في كتابه المحفوظ.

أما (لتفسدن) فاللام واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير والله، أوهي واقعة في جواب قضينا لأنه ضُمِّن معنى القسم، ومنه قولهم: قضى الله لأفعلن كذا.. وعلى هذا المعنى فإن الله سبحانه أقسم بأن قضاءه حاصل على بني إسرائيل، أو أن الله سبحانه أقسم أنه يعلم أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً. وهذا الرأي هو الأقرب إلى العقل والإيمان، لأن الله سبحانه لا يقضي على إنسان أن يفسد، بل الفساد حاصل من الإنسان نفسه، والله يعلم مسبقاً في كتابه المحفوظ أن هؤلاء سيفسدون.

أيُّ الأزمان تدل على فساد بني إسرائيل وعلوهم مرتين؟

لو نظرنا في آيات القرآن الكريم لوجدنا أن بني إسرائيل منذ عهد موسى وهارون عليهما السلام فاسدون مفسدون لم تتعمق عقيدة التوحيد في نفوسهم.. فهم الذين طلبوا عند دخولهم سيناء أن يجعل لهم موسى عليه السلام آلهة كبقية سكان المنطقة، ثم عبدوا العجل بعد غياب موسى، ثم طلبوا أن يروا الله جهرة. ويتلاحق فسادهم ومن ثم إفسادهم ما داموا على هذه الأرض.

لكن الآية القرآنية في سورة الإسراء ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ تدل على أن فسادهم في المرتين سيُرافق بعلو. فهناك فساد دون علو بمعنى

أن فساداً ما قد تحدثه فئة من الفئات دون أن يكون لها شأن وعلو واستكبار وتحكُّم، وهذا يعني أن العلو هو التحكم برقاب العباد والأموال والتجارة والاقتصاد، فإذا اجتمع الفساد والعلو في فئة صار الأمر أخطر وأفدح أثراً وسوءاً. وقد تناول المفسرون المسلمون هذه المسألة، فأقر معظمهم أن الفساد المتعلق ببني إسرائيل قد حدث في الأزمان السابقة على بعثه محمد ﷺ.

وقد أورد السيوطي في تفسيره الدر المنثور في التفسير المأثور عدداً كبيراً من أسماء المفسرين والعلماء الذين تناولوا هذه المسألة.

فأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فكان أول الفساد قتل زكريا عليه السلام فبعث الله عليهم ملك النبط، فبعث الجنود وكانت أساورته ألف فارس، فهم أولو بأس شديد فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيماً مسكيناً وإنما خرج يستطعم، وتلطف حتى دخل المدينة فأتى مجالهم وهم يقولون: لو يعلم عدونا ما قذف في قلوبنا من الرعب بذنوبنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حين سمع ذلك منهم وأشد القيام على الجيش، فرجعوا وذلك قول الله ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. ثم إن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم فاستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾. وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: الأولى قتل زكريا عليه الصلاة والسلام والأخرى قتل يحيى عليه السلام. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله عليهم في الأولى جالوت فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث إليهم ملكاً، يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت وقُتل جالوت، فنُصر بنو إسرائيل، وقُتل جالوت بيدي داود عليه السلام. ورجع إلى بني إسرائيل ملكهم، فلما أفسدوا بعث الله عليهم في

المرة الآخرة بختنصر فخرب المساجد وتبّر ما علوا تتبيرا. وقد درج أكثر المفسرين القدامى على هذا التفسير.

وإذا عدنا إلى الآيات الكريمة التي تحدثت عن إفساد بني إسرائيل نرى ما يضعف روايات المفسرين.

فالسيوطي رحمه الله، ينقل روايات ابن جرير وابن عساكر وابن أبي حاتم دون تسلسل في السند. فيظن القارئ أن الأحاديث التي وردت هي منسوبة إلى رسول الله ﷺ بينما هي خالية من السند، ومتنها ضعيف جداً بوجه عام، وقد أُخذ على السيوطي أنه يروي أحاديث ضعيفة جداً، كما أخذ عليه وقوعه في الإسرائيليات.

يقول الدكتور محمد أبو شهبة: وقد أكثر ابن جرير من النقل عن ابن إسحاق. وابن إسحاق يستند على وهب بن منبه، وروايات من أسلم من هؤلاء اليهود لا يؤخذ بها، بل تُترك لما فيها من احتمالات الصدق والكذب.

مناقشة آراء المفسرين الواردة سالفاً:

القول الأول: ابن جرير عن ابن مسعود، قال كان أول الفساد قتل زكريا، وبعث الله عليهم ملك النبط، وخرج بختنصر، ثم تجهز بنو إسرائيل وكروا على النبط.

فإذا كان قتل زكريا هو الفساد الأول. فإن قتل نبي واحد لا يمثل فساداً كلياً في الأرض، وكمْ من الأنبياء قتل بنو إسرائيل؟ ثم إن قتل زكريا عليه السلام لم يرافق بعلو لبني إسرائيل. وقد قتل في أيام السيد المسيح ولم يكن اليهود يحكمون؛ إذ كان الرومان هم الحاكمون، وكان الملك الروماني بيلاطس هو الحاكم.

أما ملك النبط فيوحي بأنه ملك الأنباط، وقد ظن ابن جرير أن النبط هم البابليون وكان بختنصر ملكهم. وقد وُجد بختنصر في القرن السادس قبل الميلاد وتحديداً سنة 570، فكيف نوفق بين تاريخ مقتل زكريا عليه السلام وتاريخ وجود بختنصر؟ إن التناقض التاريخي واضح جداً في هذه المسألة.

ثم إن بني إسرائيل في عهد بختنصر سبوا إلى بابل وظلوا فيها سبعين عاماً حتى جاء حكم الفرس، ولم يكر بنو إسرائيل على البابليين؛ إذ لم يكونوا سوى ثلة من الضعفاء جداً.

أما القول الثاني: أخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وقال الأولى قتل زكريا.. والأخرى قتل يحيى.

وهذا القول فيه من الضعف الكثير، فقتل زكريا لم يكن في عصر غير عصر يحيى، بل قُتل الاثنان في مرحلة واحدة لا تتجاوز السنة. فلا يمكن أن نسمي مقتل زكريا إفساداً أوّلَ ومقتل يحيى إفساداً آخر، وقتلهما كان إفساداً، ولكن الإفساد لم يرافقه علو، ولم يكن في الأرض بل هو محصور في منطقة واحدة ضيقة، وقد قتل أنبياء على أيديهم قبل زكريا ويحيى، ولم يُشر إلى أنه إفساد أو علو، وهذه هي طبيعة بني إسرائيل الإجرامية.

أما القول الثالث وهو عن ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس بأن الله بعث عليهم جالوت فجاس خلال ديارهم وضرب عليهم الخراج والذل، ثم أفسدوا مرة ثانية فبعث عليهم بختنصر، وهذا القول يخالف مضمون الآيات الكريمة، خاصة عند قوله تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، فجالوت كان وثنياً وليس موحداً وليس هو من عباد الله الخاصين.

وقولهم إن الإفساد الثاني كان زمن بختنصر. ولكن الدارس في الآيات الكريمة يرى أن الحديث يدور بين طرفين لاسواهما، وهما اللذان وجدا في الأولى وهما اللذان وُجدا في الثانية، والذي يدل على ذلك تكرار الضمائر المشيرة إلى الطرفين نفسهما وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾. أي على نفس الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة، ونفس الذين ورد ذكرهم في الآيات اللاحقة. فهم (عباد لنا) والطرف المقابل (بنو إسرائيل) يتكرران في الصراع. فكيف يكون جالوت بختنصر أو جماعة جالوت هم جماعة بختنصر؟ وهما في زمنين مختلفين تماماً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يتعلق بمسجد محدد هو المسجد الأقصى، وبنو إسرائيل لم يكن لديهم مسجد في المرة الأولى ولا في المرة الثانية، بل هناك معبد يُسمى معبد الرب، ولم تطلق كلمة مسجد إلا على المكان الخاص لعبادة المسلمين.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الحج 40.

فنرى تمييزاً بين معابد النصارى واليهود والمسلمين. ولو كان هناك مساجد لدى اليهود أو لدى بني إسرائيل لما خص الله سبحانه هؤلاء بأسماء معابد غير اسم المسجد الذي خصه الله أمة الإسلام به. والقصد من ذكر المسجد مربوطاً ببني إسرائيل يعني أنهم يحتلون بقعة هذا المسجد، ويكون محور الصراع بين عباد الله المسلمين وبين المحتلين من بني إسرائيل.

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ الإسراء 5.

وتعني الآية: إذا جاء وقت أولى المرتين من فسادكم وعلوّكم بعثنا عليكم عباداً خاصين لنا يجوسون خلال الديار التي كانت لبني إسرائيل. وجاسوا بمعنى طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين[1].

ففي أولى المرتين يكون بنو إسرائيل قد بلغوا ذروة الإفساد وذروة العلو. ولكننا لابد أن نتوقف عند ذلك طويلاً..

1 ـ لقد نزل القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد ﷺ بينما كان اليهود متمركزين في المدينة وما حولها. وكانت لهم حصون قوية في خيبر وفدك وتيماء. وكانوا عدة قبائل منها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وغيرها. أما في فلسطين فكان الرومان يحتلون البلاد لكن اليهود آنذاك كانوا مؤثرين على الحكم الروماني، وكانوا آنذاك ينقسمون مذهبياً إلى الفريسيين والصدوقيين. والصدوقيون كانوا طبقة الأغنياء المؤثرين

(1) إعراب القرآن وبيانه محمد علي طه الدرة.

في طبيعة الحكم، بينما كان الفريسيون يركزون على الدسائس ضد المسيحيين بأساليب التآمر والدس، فبطرك القدس صفرينوس تضايق منهم كثيراً حتى إنه طلب فيما بعد من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عند فتح القدس ألاَّ يساكن اليهود أهلها، وهذا ما ورد في العهدة العمرية، بينما كان اليهود في العراق وبلاد فارس من المرضي عنهم، لما لهم من دور قديم في مساعدة الفرس في القضاء على الدولة البابلية.

وبمعنى من المعاني فإن اليهود آنذاك كانوا في أوج مجدهم المالي والنفوذ السياسي والاقتصادي في الجزيرة والعراق والشام. ولم تشر المصادر التاريخية إلى وضع سيّىء لهم في ذاك الوقت.

وما يعيننا هنا العلاقة بين البعثة ووجود اليهود في المدينة وما حولها.. فالرسول عليه الصلاة والسلام بُعث في مكة. ويعلم اليهود أن نبياً سيأتي في هذا الزمان. وتشير كلّ المصادر أن اليهود فوجئوا عندما عرفوا أن النبي الجديد هو من نسل إسماعيل وأنه من العرب وليس من بني إسرائيل، وراحوا منذ ذلك الوقت يحضرون أنفسهم للغدر والعداء المستشري لهذا النبي ومن سيتبعه من أمة العرب وغيرهم.

وقبل أن تنتشر الدعوة ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة نزلت على قلبه عدة سور مكية، وكان من أكبر هذه السور سورة الأعراف. وهذه السورة حوت الكثير الكثير عن بني إسرائيل. وقد حققت هذه السورة رؤية متكاملة لطبيعة التعامل المستقبلي مع قوى الكفر والضلال والنفاق، بالنسبة لرسول الله ﷺ وكذلك بالنسبة للمسلمين، حتى يعرفوا أن يميزوا الأعداء من الأصدقاء، ويعرفوا أيضاً كيف يتعاملون مع كل طرف حسب ما تقتضيه أحجام القوى.

نزلت سورة الإسراء في مكة، ومكة خالية من اليهود، لكن هذه السورة التي تحدثت عن إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قدمت إرهاصات للمستقبل لا يعلمها إلا الله. فالمسجد الأقصى سيكون محور الصراع القادم بين أمة الإسلام وبين قوى المغضوب عليهم من اليهود وحلفائهم من الضالين. وقد بشرت هذه السورة بعودة هذا المسجد إلى دائرة المسلمين بعد أن طغى فيه اليهود وأفسدوا وعَلَوا في الأرض.

وعندما ننظر إلى سورة الأعراف ونعرف أنها أيضاً نزلت في مكة، أي أنها سورة مكية نرى أنها كانت تمهد لحدث عظيم في حياة رسول الله ﷺ والأمة الإسلامية وتقع هذه السورة في مائتين وست سور.

كان عليه الصلاة والسلام يواجه ضغطاً شديداً من قريش، ويعاني المسلمون الأوائل أشد المعاناة من المشركين. وقد ضاقت الأحوال بهم، حتى هاجر نفر منهم إلى الحبشة مرتين. وفي هذا الجو السائد كان رسول الله ﷺ ينتظر أمر ربه. وأصبح الجو الاجتماعي في الأوس والخزرج مستعداً إلى حد بعيد، لاستقباله بعيداً عن عنت قريش وضلالها.

لم تكن مكة آنذاك تحوي يهوداً يساكنون قريشاً، ولم يكن أهل مكة على تماس مباشر مع أهل الكتاب، وكان كثير من معالم الشخصية اليهودية غائبة عن مكة، ولا يعرفون سوى القليل عنها. وهذا القليل يتعلق ببعض الربويين اليهود الذين يفدون إليها لإقراض بعض الشخصيات القرشية أموالاً يأخذون مقابل إقراضها فائدة ربوية. ولما كانت آيات القرآن الكريم مشتملة على كل شيء، فقد جاءت سورة الأعراف لتعلم النبي الكريم ﷺ درساً عظيماً في تحديد الجماعات التي سيواجهها عن قريب، عندما يأذن الله بالهجرة إلى المدينة. كانت المدينة سكناً للأوس والخزرج ويشاركهم في سكنها يهود، وكان يهود يشكلون فيها وحولها ثقلاً بشرياً اقتصادياً ودينياً، وتنتشر بيوتهم وقلاعهم وحصونهم في بني النضير وقريظة وقينقاع، في خيبر المشهورة بحصونها وقصورها وغيرها من المناطق.

لقد علّم القرآن الكريمُ رسولَ الله ﷺ أن هؤلاء اليهود سيكونون أشد الناس عداوة للإسلام والدعوة. لأنهم يدّعون إرث عقيدة التوحيد وللأنبياء الذين سبقوا محمداً ﷺ. وبين أيديهم كتاب التوراة الذي فيه بعض مما نزل على موسى عليه السلام وبقية أنبياء بني إسرائيل.

وقضى الله سبحانه أن تكون الدعوة الإسلامية آخر الرسالات، وأن محمداً ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم، وأنه لن يكون من بني إسرائيل، بل سيكون عربياً من نسل إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام.

وحتى يتم نجاح الدعوة كان لابد من تعريف النبي الكريم ﷺ بطبيعة هؤلاء اليهود؛ شخصيتهم، عقائدهم، تعاملهم، تاريخهم، ومن ثم كيفية التعامل معهم على ضوء ذلك.

فبعد أن قص علينا القرآن الكريم الصراع الذي جرى بين موسى عليه السلام وفرعون، وبعد أن عرفنا نهاية الطاغي المتجبر، يقص علينا خروج موسى وبني إسرائيل إلى سيناء. وما إن دخلوا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الأعراف 138.

فكان ذلك دليلاً على أن بني إسرائيل متعلقون بعبادة وثنية قديمة عرفوها عند المصريين وليس لهم أدنى علاقة بفهم عقيدة التوحيد.

وعندما ذهب النبي موسى لميقات ربه انقلب عليه بنو إسرائيل فاتخذوا العجل إلهاً لهم صنعوه من الذهب وكادوا يفتكون بهارون أخي موسى، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ الأعراف 148. فمرة أخرى يعود بنو إسرائيل إلى مخزونهم العقيدي الوثني. وظلت الوثنية متغلغلة في نفوسهم وقلوبهم، وتحينوا فرصة غياب موسى فأفصحوا عن مكنون تلك النفوس، وصنعوا إلهاً لهم من الذهب على شكل عجل. ولا يخفى علينا أن ذلك كان تعبيراً عن تتبعهم ديانة المصريين الذين عبدوا العجل (آبيس).

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم تحدث عن اختيار موسى سبعين رجلاً من قومه لميقات ربه فأخذتهم الرجفة. وهناك دعا موسى ربه أن يغفر له ولقومه وأن يكتب لهم في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، فكان كلام الله سبحانه لموسى أن عذابه

يصيب به من يشاء وأن رحمته وسعت كل شيء، فسيكتبها للذين يتقون ويؤمنون بآياته. ولكن من هؤلاء الذين يتقون ويؤمنون بآياته؟.

ويُتبع القرآن الكريم مباشرة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف 157. فهذه الآية التي اتبعها الله سبحانه بعد دعاء موسى ورد الله سبحانه عليه، تنقلنا من عصر موسى إلى عصر جديد سيحصل. فالرسول الكريم ﷺ ما يزال في مكة، لكنه سيهاجر إلى المدينة قريباً، وفي هذه المدينة أقوام من بني إسرائيل، فلا يُحْسب هؤلاء أنهم متقون مؤمنون بآيات الله إلا إذا اتبعوا هذا النبي القادم من مكة فهو نبي آخر الزمان، وصفاته كثيرة أوردتها الآية السابقة، فهو رسول نبي أمي ومكتوب عنه في التوراة والإنجيل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، إلى آخر ما هنالك من صفات دعوية. ويطلب الله سبحانه منهم مناصرته واتّباعه واتّباع القرآن الذي نزل على قلبه. فهو رسول الله للناس جميعاً، وعلى بني إسرائيل أن يؤمنوا به لأنه يؤمن بالله وكلمته.

إن الله سبحانه يريد بذلك أن يضع الأمور واضحة بين أيدي هؤلاء اليهود، حتى لا تكون حجةً أو تبريراً لعدم اتباعهم ذلك الرسول القادم من مكة رحمة للعالمين. فالقرآن الكريم يشير بوضوح إلى قصصهم مع النبي موسى، وما كانوا عليه في مصر، وما جرى معهم أثناء عبورهم سيناء وعبادتهم العجل، ولا مجال لهم للنكران والجحود. فهذا النبي يعرف تاريخ عقائدهم وقصص انحرافهم وما لهم إلا اتباعه وعدم المكابرة الكاذبة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف: 161 ـ 162.

وتحريف القول بل حرفه عن الحقيقة التي أمرهم الله أن ينقادوا لها أصبحت صفة ملازمة للشخصية اليهودية. وهم بذلك ظالمون بالمطلق، ظالمون لأنفسهم وظالمون لغيرهم. ولذلك فقد عاقبهم الله بأشد أنواع العقاب، غير أنهم جبلوا على الظلم والكذب والتحريف وسيظلون في هذا الطريق غارقين.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ الأعراف: 163 ـ 166.

وتلك قصة أخرى يعلمها ربنا للرسول الكريم ﷺ يبين فيها طبعاً من أطباع اليهود. فهم مخادعون يظنون أنهم يخدعون الله وما يخدعون إلا أنفسهم. وقد عرف تاريخهم فنوناً من المكر والخداع لم تعرفها أمة أخرى. وقد عرفنا الكثير منها من خلال آيات الله في كتابه الكريم، ومن خلال توراتهم، ومن خلال سجلات التاريخ التي حفلت بذمِّهم.

وتأتي الآيات التالية بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأعراف 167.

فهنا ندرك أن الله سبحانه بعد أن بيَّن أخلاقهم وإفسادهم وانحرافهم أعلم الرسول الكريم ﷺ بأن هذا الإفساد لن يدوم نشره على أيديهم، إذ كتب الله سبحانه في لوحه المحفوظ أنه سيبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، حتى يوم القيامة، وهذا القضاء الإلهي خصص اليهود دون غيرهم.

وإذا تذكرنا الآيات الأولى من سورة الإسراء وبالتحديد قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ أدركنا مسألة في غاية الخطورة لما تحمل من إرهاصات إلهية يعلمها الله سبحانه لأمة الإسلام. فالله سبحانه يعلم رسول الله ﷺ أن هؤلاء المفسدين اليهود سوف يعلون ويفسدون، وعند إفسادهم الثاني وعلوهم سوف يأذن الله سبحانه بإذلالهم وتحرير الأقصى من قبضتهم وتدمير كل مظاهرهم الفاسدة. ولكن ذلك سيتبعه أمر أهم، فعباد الله مكلفون إلهياً بملاحقة إفساد اليهود أينما كانوا وكيفما حلوا وليس فقط في الأرض التي بارك الله فيها. فالآية تقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ . فخلاص الأرض المباركة من أيديهم ليس نهاية الصراع أو نهاية المطاف معهم، لأن إفسادهم يعم الأرض. وعباد الله مكلفون، بل مقدر لهم أن يلاحقوهم ويدمروا إفسادهم، وهكذا دواليك، فلن تتوقف حملة استئصال فسادهم حتى يوم القيامة. ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الأعراف 168.

فعند هذه الآية يتوقف العقل لمعرفة أسرار القرآن وإعجازه. فقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يحمل فيه من الإعجاز والدلالات الكثير، فلم يقل وزعناهم أو نشرناهم، بل قال: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ ﴾ بتشديد الطاء، ومصدر الفعل قطّع هو تقطيع، ودلالتها أقرب إلى دلالة التمزيق منها إلى دلالة التوزيع، وهي دلالة سيئة بالنسبة لهم، بل هي نوع من أنواع العقاب. ثم يقول: ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. وهذا يعني أن الله عاقبهم بتقطيعهم أمماً في الأرض. وهذا ما يؤكد أن إفسادهم من بعد التقطيع سيكون في الأرض كلها.

ويتلاحقون جيلاً بعد جيل فيأتي بعد الجيل الأول أجيال حتى يأتي من بعدهم جيل يأخذون بشيء من الكتاب ويهملون بعضه. ينتقون ما يوافق أهواءهم ويعرضون عما سواه.

يقول تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ الأعراف 169. فكلما تقدم بهم الوقت، ازدادوا انحرافاً. وأشد أنواع الانحراف أنهم يتقبلون فوراً أي عرض دنيوي يماثل ما يأخذونه من الكتاب. المهم أن يكون موافقاً أهوائهم على الرغم من أن الله أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً أن لا يقولوا إلا الحق. ولكنهم نسوا ميثاق الله معهم، على الرغم من أنهم يعرفون حق المعرفة ذلك الميثاق، لأنهم درسوه وما حفظوه. عرفوه وجحدوا به وطووه دون الأخذ به. ولعل من أبشع أنواع الخلق البشري أن يخون البشر ميثاقاً بينهم وبين غيرهم، فكيف إذا كانت الخيانة لله ولميثاقه الغليظ؟

من هنا نرى أن سورة الأعراف منحت رسول الله ﷺ رؤية واضحة لوضع اليهود، من الناحية العقيدية والنفسية والاقتصادية. وهذه الرؤية التي مُنحت له من خلال السورة حددت له كيفية التعامل مع اليهود الذين سيواجههم في يثرب، فهو يتهيأ للهجرة من مكة إلى المدينة، وهو متحصن بآياتٍ قرآنية رسمت له جميع الخطوط العامة لما هو قادم.

ومن المهم أن نتنبه لذلك بما أن الصراع مع اليهود سيكون مفتوحاً. ولنا من سورة الأعراف دروسٌ كبرى، حتى نتعلم كيف يكون التعامل مع هؤلاء الذين قطَّعهم الله أمماً في الأرض، ثم تجمعوا ومدوا بأموال وبنين وأصبحوا أكثر نفيراً. هؤلاء الذين قدر الله سبحانه، أن يذلهم ويسوء وجوههم تمهيداً لتحرير الأقصى والأرض المباركة وملاحقة الإفساد اليهودي أينما وجد وأينما حل.

فساد بني إسرائيل وعلوهم. من الصدام الدموي في يثرب إلى تحرير بيت المقدس:

قد يتصور بعضنا أن فساد بني إسرائيل ينحصر في مدينة ما أو منطقة محصورة محددة، وعليه فقد يتصور أن القضاء على هذا الفساد لا يحتمل وقتاً طويلاً. والواقع أن فساد بني إسرائيل يمتد جغرافياً ويمتد زمنياً.

حال اليهود في المدينة وما حولها:

حدثت بين الأوس والخزرج معارك طاحنة، ولبثت الخصومة بينهم حسب بعض المصادر مائة وعشرين سنة. وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالف كل من الأوس والخزرج قبيلة من اليهود، فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بُعاث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يوماً عظيماً مات فيه أكثر رؤسائهم.

في أثناء ذلك كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود هدد اليهود العرب بأن نبياً قد آن أوان بعثه، وأنهم سيكونون أتباعه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم[1]. وإذا تتبعنا مسيرة الصدام بين المسلمين وبين اليهود نرى أنها امتدت سنوات، بدأت منذ البعثة المحمدية، وتخللها الصدام في المدينة مع بني قينقاع، ثم بقية القبائل اليهودية، واستمرت حتى حُرِّر بيت المقدس في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والواقع أننا لا نستطيع أن نفصل هذه السلسلة بعضها عن بعض فهي تشير إلى فساد بني إسرائيل وعلوهم، ثم إلى القضاء على الفساد والعلو بشكل انحداري منذ البعثة حتى تحرير بيت المقدس.

قال ابن إسحاق: كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق قينقاع ثم قال: يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة ص 161.

وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم قالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك؟ لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم في الحروب فأصبت فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس.

وروى ابن هشام عن عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عوانة أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ فيها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ. فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فخرجوا إلى أذرعات الشام وهلك أكثرهم فيها. فالمدقق في فعلِ اليهود وأقوالهم يستنتج أنهم كانون يظنون أنفسهم أقوى من قريش وأنهم رجال حرب. وهذا الكلام يدل على أنهم كانوا يعيشون حالة نفسية متعالية، ثم إنهم بتصرفهم الأحمق مع المرأة المسلمة يدللون على فسادهم وإفسادهم ونظرتهم العنصرية لسواهم. وهذان الأمران؛ أي الظن بأنهم أقوى من غيرهم وأنهم قادرون على مواجهة الرسول ﷺ، وتصرفهم الفاسد مع المرأة ـ يدلاّن على أنهم كانوا في حالة علو وإفساد، وهذان الأمران ليسا سوى المقدمة للصدام بينهم وبين المسلمين. ويظهر جلياً أن الذي ألهب مشاعر اليهود وآثار الحقد الدفين في نفوسهم إنما هو ما وجدوه من انتصار المسلمين في بدر. وهو أمر لم يكونوا يتوقعونه بحال. فضاقت صدورهم بما احتوته من الغيظ والأحقاد، ولم يجدوا إلا أن ينفسوا عنها بمثل هذا الذي أقدموا عليه. وتتصاعد طبيعة الصدام عندما هم اليهود بقتل النبي ﷺ. وكان ذلك في بني النضير، عندما أرادوا أن يلقوا على الرسول ﷺ صخرة لقتله، فأعلمه جبريل عليه السلام. واعتبر النبي ﷺ ذلك نقضاً للعهد الذي كان بينه وبين اليهود. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى بني النضير أن اخرجوا من بلدي وقد

أجلتكم عشراً، من رؤي بعد ذلك ضربت عنقه. فأخذوا يتهيؤون للخروج، لكن كبير المنافقين أطمعهم بأن يساعدهم فتحصنوا بحصونهم ومعهم النبل والحجارة، ولكن ابن أُبيّ المنافق خذلهم. فحاصرهم النبي ﷺ حتى رضخوا وخرجوا من المدينة متجهين إلى خيبر والشام.

وتتطور الأحداث حتى غزوة الخندق عندما نقض بنو قريظة العهد. وجاء الأمر من الله سبحانه بأن يعود رسول الله ﷺ إلى السلاح. وأشار جبريل إلى بني قريظة. فخرج النبي إليهم ﷺ ونادى في المسلمين أن لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة فسار الناس، حتى حاصروا بني قريظة وهم متحصنون في حصونهم. ودام الحصار خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، ثم أنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فيهم، ثم استنزل اليهود من حصونهم فسيقوا إلى الخنادق في المدينة فقتل مقاتلهم وسبيت ذراريهم. وكان من جملة من سيق إلى القتل حُيَيُّ بن أخطب الذي كان قد سعى حتى أقنع بني قريظة بالغدر ونقض العهد.

وعلى بعد مائة ميل شمال المدينة جهة الشام كانت تقبع حصون خيبر الحصينة. وقد تجمع اليهود فيها حيث كانت مدينة كبيرة ذات مزارع وقلاع. وكان النبي ﷺ قد ضايقه تجمع اليهود فيها، حيث ما يزالون يفتنون ويفسدون ويحالفون القبائل لعداء المسلمين.

كان مع النبي ﷺ ألف وأربعمائة مقاتل ما بين فارس وراجل. ووصل المسلمون إلى حصون خيبر، فراحت تتهاوى حصناً بعد حصن إلا حصنين وهما الوطيح والسُلالم. وقد حاصرهما رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، ولشدة الحصار أيقن من فيهما بالهلاك فسألوا الرسول ﷺ أن يخرجهم ويجليهم ويحقن دماءهم فوافقهم رسول الله ﷺ.

ثم إنهم عمدوا إلى زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم فسممت شاة مشوية وأكثرت السم في الذراع. لكن رسول الله ﷺ عرف أن الذراع مسمومة. فدعا

زينب فاعترفت وقالت بُلغت من قومي ما لم يخف عليك، ثم طرد اليهود من الحصنين وجميع منطقة خيبر.

من خلال تسلسل أحداث الصدام بين الرسول عليه الصلاة والسلام واليهود نجد أن اليهود كانوا منتشرين داخل المدينة وخارجها وهم قبائل متفرقة في أمكنة قريبة من المدينة أو بعيدة عنها. وما يدلل على فسادهم تصرفاتهم تجاه الرسول والمسلمين من غدر وخيانة ومحاولة قتل النبي ﷺ، وكذلك محاولة إهانة المسلمين من خلال كشف عورة المرأة المسلمة.

لكن الأهم من ذلك كله أن اليهود آنذاك كانوا يتحكمون عقيدياً بالمنطقة إذ يعتبرون أنفسهم أفضل من العرب؛ لأنهم أصحاب عقيدة وكتاب. وكان العرب وخاصة الأوس والخزرج، يشعرون بنقصٍ أمامهم. وكذلك كانوا يتحكمون بتجارة الذهب والمال، فقد روت جميع كتب السيرة والتاريخ أنهم كانوا يقرضون الأموال لعرب المدينة ومكة وغيرهم من الأعراب. وتبين كتب التاريخ أنهم قبل البعثة كانوا مرتاحين لا يضايقهم أحد من القبائل العربية.

أما علوّهم فقد بلغ أوجه في خيبر حيث كانوا الوحيدين الذين يمتلكون حصوناً قوية لا يمكن أن تُفتح. وإذا قارنا ما كان عليه وضعهم في التحصين مع وضع العرب آنذاك وجدنا أنهم كانوا الأقوى تحصيناً وتسليحاً والأقوى اقتصادياً ومالياً.

ولكثرة ما كانوا يعتزون بحصونهم لم يخطر ببال أحد منهم أن هذه الحصون ستنهار أمام الرسول عليه الصلاة والسلام وجيش المسلمين. والمسلمون أنفسهم لم تكن لديهم الثقة بأن هذه الحصون سوف تستسلم وتسقط، وهذا ما يدل على علوّهم وقوتهم آنذاك.

وقد قال تعالى واصفاً ذلك في سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ

حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ سورة الحشر 2 ـ 3 ـ 4.

ويقول تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحشر 14.

فدلائل علوهم:

1 ـ أن المسلمين كانوا يشكّون في أن تفتح حصون خيبر.

2 ـ وأنهم أي اليهود كانوا يظنون أن حصونهم ستمنع سقوطهم.

3 ـ نصر المسلمين كان من عند الله حيث أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

4 ـ قذف الله في قلوبهم الرعب قبل أن يسقطوا حتى يكون النصر ويتحقق.

5 ـ أن الله كتب عليهم الجلاء. بمعنى أن الله قدَّر عليهم ذلك في علمه المسبق.

ولعل من أعظم دلائل العلو أن تصل الثقة بالإنسان حداً لا يعتقد بعده أنه سوف يسقط، وهكذا كان حال اليهود في خيبر.

بعد هذا الصدام بين المسلمين واليهود لابد أن نتساءل: أين ذهب اليهود الذين كسروا من بني قينقاع وقريظة والنضير وخيبر؟. إن الوقائع التاريخية تشير إلى أن من تبقى منهم رحل باتجاه فلسطين وما حولها، ظناً منهم أنهم سيكونون في مأمن من زحف المسلمين وفتحهم المتواصل.

ارتبط الصراع بين الإسلام واليهود بالقدس ارتباطاً عقيدياً، فقد كان اليهود حسب ما أوردت المصادر يتوجهون في صلاتهم نحو بيت المقدس. وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة توجه نحو بيت المقدس في صلاته مدة ستة عشر شهراً. لكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يتوجه إلى البيت الحرام الذي بنى قواعده أبو الأنبياء وإمامهم إبراهيم عليه السلام.

وعندما أمره الله في النصف من شعبان بالتوجه نحو البيت الحرام خرج السفهاء من اليهود يروّجون بين الناس أن محمداً ﷺ قد حوّل القبلة التي شرعها الله وجهةً للمصلين. فأنزل الله سبحانه في ذلك قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة 144. لقد كان اليهود يعلمون أن محمداً ﷺ نبيٌ، ويعلمون من خلال كتبهم أنه سيتجه إلى بيت المقدس مدة ثم يختار الله له المسجد الحرام قبلةً، قبلة إبراهيم عليه السلام.

لقد ظهر أن اليهود كانوا يريدون أن يُظهروا أنفسهم أنهم الأصل في اختيارهم أصحاب عقيدة التوحيد، وأن قبلتهم هي الأساس في التوجه في الصلاة، وقد غاظهم أن الله كشف فسادهم ونواياهم السيئة.

وحتى يكتمل عمل رسول الله ﷺ فيما يتعلق بإنهاء فساد بني إسرائيل نبه الصحابة إلى مكانة المسجد الأقصى وبيت المقدس. وقدمنَّ الله عليه بأن جمع في صلاته بين قبلتين ليُذل اليهود أكثر فأكثر.

ويتضح لنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام، ربط بين توجهه واهتمامه البالغ ببيت المقدس، وبين تنفيذه عملاً يكون مقدمة لفتح الأرض المباركة. فبعث السرايا باتجاه الشام، وحدثت معركة مؤتة ثم غزوة تبوك. وكل ذلك كان تمهيداً واقعياً لفتح بيت المقدس. إن اليهود ادعوا أن بيت المقدس كان قبلتهم، وكان رسول الله ﷺ يدرك أنهم فاسدون مفسدون، ولن يكتمل محو فسادهم وعلوهم إلا إذا خلص بيت المقدس من أي ارتباط بإفسادهم وعلوهم. ولذلك رأينا أن انكسارهم بدءاً من بني قينقاع حتى انكسارهم في خيبر يظل ناقصاً إن لم يحرر بيت المقدس ويضم إلى الدائرة الإسلامية، ويلغي أي علاقة بهؤلاء اليهود الفاسدين، ولذلك فإننا نرى أن فساد بني إسرائيل وعلوهم يقع في دائرة واحدة تبدأ من أول صراع مع اليهود

وتنتهي بتحرير بيت المقدس. يروي ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: ثم سار الخليفة عمر رضي الله عنه حتى صالح نصارى بيت المقدس واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل مكان المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء.

ومما يلفت النظر أن الخليفة عمر صلى بالمسلمين صلاة الغداة فقرأ في الركعة الأولى من سورة ص، وسجد فيها والمسلمون معه، وقرأ في الركعة الثانية سورة الإسراء (سورة بني إسرائيل) ثم جاء إلى الصخرة فاستدل مكانها من كعب الأحبار. ثم جعل المسجد قبلي بيت المقدس وهو المسجد العمري. ثم نقل التراب عن الصخرة بطرف ردائه وقبائه. ونقل المسلمون معه ذلك.

ونذكر جميعاً العهدة العمرية وما تضمنته من أمور كان أهمها البند الذي يقول: (وأن لا يساكن اليهود أهل إيلياء) حيث جاء هذا من شروط تسليم مدينة القدس للخليفة عمر رضي الله عنه.

ومع فتح بيت المقدس رفعت قواعد المسجد الأقصى، فوق البقعة التي أُسري برسول الله ﷺ إليها ثم عرج منها إلى السماء. وبذلك سقط علو بني إسرائيل سقوطاً كاملاً، وأنهي إفسادهم الأول. لقد استغرق ذلك السقوط مدة ليست باليسيرة، بدأت كما قلنا نظرياً منذ بُعث الرسول ﷺ، وعملياً منذ الصدام الأول مع بني قينقاع في المدينة، وانتهت عند فتح بيت المقدس وإلغاء أية علاقة أو ادعاء من قبل اليهود بأن لهم شأناً وارتباطاً ببيت المقدس.

وقفة مع الدخول الأول إلى بيت المقدس:

يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ الإسراء الآية 5.

عندما نزلت سورة الإسراء كان رسول الله في مكة. فالسورة مكية وليست مدنية.

فإذا تأملنا قوله تعالى فإذا جاء وعد أولاهما، ندرك أن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان لا يتحقق جوابه إلا إذا تحقق فعله. بمعنى أنه إذا جاء وعد المرة الأولى بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد. بعثُ العباد لا يتم إلا إذا تحقق على الأرض تنفيذ قضاء الله بمجيء المرة الأولى.

فالحديث يدور عن المستقبل الآتي بعد نزول سورة الإسراء، لأن الصراع سيكون على أشده بين المسلمين واليهود. وليس الحديث يدور عن الماضي وما حدث فيه كما يرى بعض المفسرين القدامى. ولعل ـ إذا ـ الشرطية المرتبطة بالمستقبل تقول ذلك.

وقوله تعالى بعثنا عليكم. تعني أن الله سبحانه هو الذي اختار هؤلاء الذين يبعثهم على بني إسرائيل. ولم يقض الله سبحانه أن بعث على بني إسرائيل عباداً له خاصين في اختياره سوى المسلمين.

لقد ظل اليهود في المدينة وخيبر وبعض المناطق الأخرى مئات السنين، لم يتعرضوا للنفي والإخراج من الديار إلا في زمن المسلمين.

لقد بلغ إفسادهم حداً يستدعي أن يوقفوا عند حدّهم، وبلغ علوهم شأناً كبيراً في التحكم بالمال والمراباة والاستهتار بالعرب من أهل الجزيرة العربية. وهذا العلو المرافق بالإفساد يحتاج لمن يُنهيه، فلذلك اختار الله سبحانه المسلمين ليكونوا المسلَّطين على بني إسرائيل في هذا الشأن.

وقال تعالى: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. فلا يكفي أن يكونوا أولي بأس بل وصف البأس بالشدة، ليتناسب ذلك مع فساد بني إسرائيل وعلوهم.

وعند قوله ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾. فإن الديار لم تتحدد في مكان واحد. فكل منطقة سكن اليهود فيها وتحصنوا في قلاعها وحصونها هي ديارهم، إن كان في خيبر أو غيرها. فجاسوا خلال الديار أي دخلوا حاراتها وقلاعها وكل شبر فيها ولاحقوا اليهود فيها إما قتلاً وإما نفياً وأسراً. وكان وعد الله في ذلك وعداً مفعولاً لارادّ له.

ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ الإسراء 6 لقد قضى الله سبحانه أن يصل الصدام بين المسلمين واليهود إلى ذروته مرتين وفي كل مرة يبلغ فساد بني إسرائيل مرافقاً بعلوهم، الذروة.

أما بالنسبة للزمن الذي رد فيه سبحانه الكرة على العباد فهو لم يتحدد، إذ جعل هناك قرائن لغوية تفيدنا في إضاءة المسألة.

ثم حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور التشريك في الحكم، والترتيب، والمُهلة. ثم تفيد هنا التراخي الزمني بين الاخبارين كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

رددنا: النا تعود لله سبحانه بمعنى أنه هو الذي رد لهم الكرة.

عليهم: الهاء تعود إلى عباد لنا إذ من الواضح أن مجمل الصراع يكون بين طرفين، بني إسرائيل وعباد لنا.

وقد يبادر إلى الذهن سؤال: لماذا أراد الله ذلك؟ لماذا ردّ لبني إسرائيل الكرة على عبادة الخاصين.

فالواقع يقول لنا إن الزمن المتراخي بين الانتصار الإسلامي الكبير على بني إسرائيل وبين عودة اليهود إلى القوة من جديد، يصل إلى أربعة عشر قرنا ونيف. وإذا درسنا ما أصاب المسلمين من الابتعاد عن دين الله وسنة نبيّه أدركنا أن ضعفاً عقيدياً وأخلاقياً وسلوكياً حل بالمسلمين، وعدم نصر دين الله واتباع منهجه جعلا المسلمين يصابون بالوهن والرعب والتفرق والتفسخ والانكسار أمام أعدائهم اليهود. ولكن انتصار اليهود هذه المرة حوى من الأسباب الموضوعية الكثير.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ فهناك ثلاثة أسباب مهمة مكنت اليهود من الانتصار: المدد بالمال، المدد بالبشر، المدد بقوة النفير.

إن دارسة تاريخ بني إسرائيل استناداً على أخبارهم في التوراة وفي كتب التاريخ القديم والوسيط، لا تشير قطعاً إلى وجود ثلاثة أسباب مجتمعة تجعلهم أقوى

من المسلمين إلا في الوقت الحاضر. فلأول مرة يسيطر اليهود على مال العالم، ولأول مرة يجتمع اليهود في فلسطين بهذه الكثافة وهذا العدد. فالهجرة بلغت ذروتها إلى فلسطين، والمهاجرون اليهود جاؤوا من أقطار الدنيا يحتشدون بقوة المال والسلاح، ولأول مرة يستطيع اليهود أن يكونوا أكثر قوةً وأكثر نفيراً من جميع العرب والمسلمين مجتمعين.

ويقول تعالى موضحاً ذلك: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ آل عمران 112. وعندما ندرس واقع اليهود اليوم نرى أن قوتهم تُستمد من أمريكا بكامل طاقتها الفكرية والعسكرية والمالية.

ومن الواضح جداً أن اليهود اليوم يتفوقون على أمة العرب بالسلاح والمال والنفوذ والإعلام، لا لسبب إلا لأن الأمة ابتعدت عن منهج الله الذي رسمه في قرآنه العظيم، ونعتقد أننا بغنىً عن تعداد ما لدى الكيان الصهيوني اليوم من عتاد متفوق وأموال ونفوذ في العالم.

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ فالخطاب موجه لبني إسرائيل. فقد أصبحوا أكثر قوة ونفيراً، ومُدوا بالمال والبنين، وبمعنى آخر أصبحوا في قمة علوهم. فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فإن إساءتهم تقع على أنفسهم أيضاً.

لكن الذي يُفهم من السياق أنهم لن يحسنوا إلى أنفسهم، بل تشابك علوهم مع فسادهم، ولذلك حكموا على أنفسهم بأنفسهم بالهلاك والتدمير. وهم الذين خلقوا الأسباب لذلك. وعندما نتوقف عند قوله تعالى: ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ لابد لنا من وقفة طويلة متأملين ماذا تعني إساءة الوجه لهم بعد أن وصلوا الذروة في العلو والفساد.

وقبل أن ندخل في التفاصيل لابد أن نشير إلى أن إساءة وجوههم هذه المرة ستكون بدايةً في الأرض المباركة، حول المسجد الأقصى الذي هو محور الصراع. فكلمة المسجد وردت في الآية الأولى ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. ووردت في الآية الأخيرة ﴿وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فهنا نرى أن كلمة المسجد الثانية لا تحتاج إلى تعريف أكثر، فيكفي دخول أل التعريف عليها لترشدنا إلى المسجد الذي ورد في الآية الأولى. ومما يلفت النظر أن المرة الأولى التي انتصر عباد الله فيها على اليهود وهي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾. لم يرد فيها ذكر للمسجد، لأن الواقع يقول لنا إن المسجد آنذاك لم يكن ظاهر المعالم كما في المرة الثانية. إننا نرى المسجد الأقصى اليوم واضح المعالم، وأخذ من الأبعاد المكانية ما لم يكن قد أخذه عندما دخل المسلمون أرض فلسطين المباركة زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ ماذا تعني بعد أن وصل اليهود الذروة في العلو والإفساد؟ شعب الله المختار. هكذا بدأت الأسطورة منذ دوّن الأحبار قصص أسلافهم من أتباع اليهودية وأخبارهم. ومنذ ذلك الوقت يعيش اليهودي حالة من الخدعة الكبرى بأنه الأرقى بين شعوب العالم والأنقى من بين كلّ المخلوقات حتى الملائكة. ومنذ ذلك الوقت أغلق على نفسه الأبواب لأنه يرى العالم كله من منظار فوقي عنصري فهو لا يريد الاختلاط بالآخرين ليبقى دمه نقياً، ويكره الإنسانية جمعاء؛ لأنه يظن أن أبناءها دونه وهم أشبه بالحيوانات المسخرة لأغراضه. وبعد مرور هذا الدهر الأسطوري على مقولة التفوق الكاذبة تقف أمامنا الشخصية اليهودية كتلةً من العُقد النفسية التي يصعب على العلماء تحليلها وكشف علاجها والتخلص منها ومن عقدها.

ويبقى العلاج الحقيقي في إطار علم النفس القرآني الذي تغافل عنه الكثيرون، ولم يستطيعوا الوصول إلى مقاصده ومعانيه النفسية.

وعود على بدء، نرجع قليلاً إلى الوراء لنرى الشواهد الكثيرة على ما آلت إليه هذه الشخصية من تضخم عنصري مرضي.

وبعيداً عن البعد التوراتي في تصوير هذه الشخصية يستطيع المرء أن يقف على مئات الشواهد الحديثة والمعاصرة المفصحة عن هذه الحالة المرضية من التضخم والانتفاخ الشخصي.

صحيح أن الدين اليهودي قد ترك خصائص نفسية مشتركة بين اليهود في شتى بقاع العالم، ولكن الدين ليس وحده مصدر المقولات في المجتمعات، ومن ثَمَّ فإنه إلى جانب الخصائص النفسية المشتركة الناجمة عن الدين، هناك خصائص نفسية أخرى ليست مشتركة بين اليهود، ناشئة عن ارتباط كل جماعة منهم بالبيئة الاجتماعية التي تعيش فيها.

غير أن الشيء الذي تتميز به الخصائص الناجمة عن الدين اليهودي ذلك أن الدين اليهودي في حد ذاته، وكما هو مدوَّن في أسفار التوراة وفي التلمود، تنطوي على العنصرية والعنف تعبيراً عن الروح الأنانية. ولم يكن ذلك بمحض المصادفة إذ إن التجربة اليهودية في التاريخ كانت تجربة دموية أنانية إلى أبعد الحدود. وهذه التجربة تتخذ في حقيقتها طابع العقدة النفسية بكل ما تعنيه هذه العبارة من معنى.

والواقع أن الحركة الصهيونية تحاول إعطاء وهم القومية اليهودية مضموناً فكرياً محدداً يرفعها إلى درجة الأيديولوجيا السياسية، ويستند هذا المضمون في أحد مكوناته، على الزعم بالنقاء الجنسي المزعوم للعرق اليهودي، المضاف إليه الزعم بتفوق الجنس اليهودي تفوقاً نوعياً على الشعوب الأخرى.

وينتج عن خرافة النقاء العرقي للجنس اليهودي خرافة التفوق النوعي اليهودي، لكنها تظل بالنسبة للحركة الصهيونية مجالاً أوسع في إتاحة الفرصة للادعاء، ذلك

أن لها أصلها الديني في فكرة «الشعب المختار» ومن ثمَّ، فهي إن عجزت عن إثبات نفسها واقعياً سرعان ما تلتجئ إلى نصوص التوراة التي تدعمها.

يقول بن غوريون بعد انتهاء عمليات العدوان الثلاثي عام 1956 في رسالة وجهها إلى الجيش الصهيوني: «لقد أنجزتم أشياء ربما كانت أهم من أي مسألة سياسية أو دفاعية، لقد أعدتمونا إلى أعظم لحظات حياتنا الحاسمة في تاريخنا، لقد أرجعتمونا إلى المكان الذي أعطينا فيه القانون، وفيه كلفنا الرب بأن نكون شعباً مختاراً».

فهذا النص مثلاً يجعلنا نتساءل عن علاقة بن غوريون واليهود المعاصرين بموسى عليه السلام. وبن غوريون نفسه لا يستطيع أن يوضح أنه هو نفسه سليل آل يعقوب مثلاً. لكن هذا يوضح لنا كيف أن الحركة الصهيونية تحاول الاستفادة من النص ولو لم تنطبق الشروط، لأنه لا توجد بين الرب وعبيده محكمة نقض، وإبرام معاهدة أرضية، وإذا عدنا إلى النصوص الصهيونية المعاصرة نرى أن الوهم بالشعب المختار يبلغ حداً مَرَضياً لا يخفى على أحد.

يقول برنارد كوهين: «إننا نحن المختارون، إن لنا الحق في المطالبة بتبجيل خاص، إننا لا نريد أن نكون مساوين لغيرنا في الحقوق، بل نريد أن تؤثرنا الشعوب الأخرى بامتيازات خاصة».

ويقول آشير جنز برج: «سيسود شعبنا اليهودي كل الشعوب الأخرى. إن إسرائيل هذه هي الأمة العليا التي تملك القدرة على التوسع، وأن تصبح سيدة العالم دون النظر بعين الاعتبار إلى ما يمكن أن يكلف هذه الشعوب الأدنى مقاماً. لأن الأمة العليا وحدها فقط هي زهرة البشرية وذروتها، وما خُلقت الأمم الأخرى جميعاً إلا لتخدم هذه النخبة»[1].

(1) هيثم الكيلاني، المذهب العسكري الإسرائيلي، مركز الأبحاث بيروت 1969 ص 25.

ويبلغ الحس بالتفوق والعنصرية مداه حين نقرأ لـــ هربرت شيف وهو يقول بكل بساطة: «إسرائيل هي الخلق الثاني للعالم، إلا أن الإسرائيليين يعملون بسرعة أكبر، بصورة جوهرية من سرعة الله عند الخلق الأول للعالم في ذلك الوقت».

ولا شك في أن هذا المرض الانتفاخي وهذا الوهم الذي سيطر على عقول اليهود في العصر الحديث لم يكن منشؤه عن طريق رواد الفكر الصهيوني وحدهم، بل اشترك العلمانيون والمتدينون في صنعه. واختلط الفكر الصهيوني بالدين كما فسره حاخامات اليهودية في أوروبا الشرقية خاصة وفي العالم عامة.

فجابوتنسكي يقول: «كل إنسان آخر على الخطأ وأنت اليهودي وحدك على الصواب، لا توجد حقيقة واحدة في العالم وهي بكاملها ملكك أنت». ويقول: «إن التوراة والسيف أنزلا من السماء معاً» مشيراً إلى العقيدة والقوة المعتمدة على السيف والسلاح. أما ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي الأسبق، فيقول: «لقد أعطت أمتنا اليهودية ثلاثة من العباقرة تتوقف على علمهم ثقافات الأمم ماركس وفرويد وإنشتاين».

ويقول الحاخام شنيؤورسن أحد قياديي حاباد: «إن الفرق بين اليهودي وبين غير اليهودي كما الفرق بين الروح الإلهية والبشر. فشعب إسرائيل صفوة الشعوب، إذ هو مخلوق من روح الله، بينما أرواح الشعوب الأخرى مخلوقة من النجاسات الثلاث». ولعلنا لا نستطيع أن نحصر كل ما قاله اليهود من مفكرين وحاخامات، وغيرهم من المنظرين السياسيين الصهاينة، لكن ما أوردناه هو شواهد لعدد من هؤلاء الذين وقعوا في عقدة الانتفاخ الذاتي المرضي.

وحين نطلع على ما قاله قادة الكيان الصهيوني منذ استيلاء الصهاينة على فلسطين عام 1948 نرى أنهم دوماً يتصاعدون إلى التماهي مع الفوقية والعنصرية. فمنْ عام 1948 حتى عام 1967 ركز بن غوريون وشاريت ووايزمان وقادة صهاينة

غيرهم على الإنجاز والتفوق والقدرة الذاتية المزعومة في تحقيق تشكيل الكيان الصهيوني. وفي عام 1956 حشد الإعلام الصهيوني مقولات بالمئات لزعماء الكيان الصهيوني على اختلاف توجهاتهم الحزبية، يعربون فيها عن إعجابهم بالعبقرية الفريدة التي استطاعت إلحاق الهزيمة بالمصريين على حد زعمهم. وبلغت ذروة الأنا المرضية عند الزعماء الصهاينة في عام 1967 عندما استطاع الجيش الصهيوني احتلال سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس، وبات من المؤكد أن التضخم النفسي لدى اليهود كافةً بلغ حده المرضي. وأصبح من المستحيل على أي يهودي أن يصدق أن جيشه يقهره أحد، فهو السيد المطلق في المنطقة، وهو الأسطورة التي لا تقهر، إلى ما هنالك من مقولات التضخم الذي طالت كلّ الأوساط اليهودية في فلسطين المحتلة وفي العالم. وبسبب الأوضاع السيئة والمتردية في أقطار الوطن العربي استطاع الإعلام الصهيوني المكثف والمركز والمعتمد على علم النفس أن يروض العقل العربي ويغرس في شخصيته قناعات اليهود ذاتها، والقائلة بتفوق العنصر اليهودي ومضاهاته حتى للملائكة على حد قول أحد الحاخامات.

وحين ننظر إلى الواقع العربي بعد عام 1967 نرى أن كثيراً من أبناء العرب أصبحت لديهم قناعات راسخة بأن اليهودي لا يمكن أن يُقهر وما على العرب إلا التسليم بذلك وقبول الأمر الواقع.

وبانتهاء هذه المقولات وتوصيفها بشكل موجز نعود إلى الجانب الأهم في رؤيتنا لمفهوم العقدة الاستعلائية وكيفية القضاء عليها.

والواقع أن فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً ودقيقاً يوصلنا إلى رؤية متكاملة، تحدد فيها ملامح الشخصية اليهودية، وكذلك أسس الرؤية القرآنية للقضاء على إفسادها وشرورها وتضخمها المَرَضي.

عندما يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء العظيمة ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ كان يخاطب سبحانه بني إسرائيل ومن ينطبق عليهم هذا الاسم.

وعودة إلى النص القرآني تعلمنا ربط القضايا ربطاً دقيقاً يوصلنا إلى نتائج في غاية الأهمية.

يقول تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾. ويقول في الآية السابقة: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾.

وما دمنا في سياق دراسة الانتفاخ المرضي في الشخصية اليهودية والحل القرآني للقضاء عليها، فإن وقفتنا هنا تتحدد في مسألتين هامتين: إفساد بني إسرائيل وعلوهم علواً كبيراً. وإساءة وجوههم قبل الانتصار عليهم وتدمير ما علوا به من قوة وتحصين وإفساد.

فالإفساد في الأرض وفي الإنسانية كلها كان سبيل اليهود ومازال، فهو إفساد تتبدى مظاهره على مساحة العالم كله. إفساد بالمال وبالجنس، وبالثقافة والعلوم، بالعقائد والمعتقدات. إفسادُ في السياسة الدولية والمجتمعات العالمية. إفساد بالمافيا والاغتيال والتدمير. وبمعنى واحد إفساد يوازي الشر بأكمله، والعلو والاستعلاء والاستكبار والعنصرية والفوقية، تندرج كلها في إطار واحد هو الظن بالتفوق على البشرية، الظن بأفضلية عنصر اليهود على كل العناصر التي خلقها الله.

وضمن سياق التحليل النفسي فإن حقن الإنسان حقنا يومياً بمقولات التفوق والعنصرية سيجعله يصدق أنه فعلاً متميز عن غيره، ولا يمكن أن يخطر في باله أن ينتصر أحد عليه أو يذله، ويقمع شهواته العنصرية التي تسير حسب هواه دون ضوابط. في هذه الحال لابد من الاعتراف بأن شخصاً يعتز بنفسه اعتزازاً يصل حد العنصرية لا يمكن أن تنتصر عليه قبل إذلاله؛ لأن الإذلال وضعٌ نفسي صعب وقاس، فالاستعلاء والكبر والاستكبار لا يوازيه في القاموس النفسي إلا الإذلال. ومن هنا، كان قول الله تعالى: ﴿ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾. وقدم إساءة الوجه على أي عمل آخر. وإساءة الوجه تعني الكثير من الإذلال بعد الاعتزاز وتعني الاستصغار بعد

الاستكبار. وتعني تصغير المارد حتى يصبح فأرا تدوسه الأقدام. وهنا فإن إساءة الوجه أكبر انتصار نفسي للمسلمين وأكبر انكسار وذل لليهود.

وأعتقد أن هذه الإساءة في المنظور النفسي تعني أن اليهودي يتحطم نفسياً ويصبح بلا حول ولا قوة. وأعتقد أيضاً أن عملية الإساءة هي الأهم في دائرة الصراع النفسي بين المسلمين واليهود. فاليهودي الذي تربى على أنه العنصر الأفضل في العالم، وأنه شعب الله المختار، وأنه صفوة المخلوقات سيتحطم وتتحطم في شخصيته هذه المقولات الكبرى والقيم المضخمة التي تربى عليها توراتياً وسياسياً.

هذه الإساءة إن تركت له مجالاً للتفكير ولو للحظات سيدرك أن مقولات توراته كاذبة وخادعة وأن مقولات زعمائه الصهاينة هي مقولات زائفة بُنيت على التضليل والخداع، وسيدرك أن الأحلام الوردية الوهمية التي راودته طوال حياته ما هي إلا سراب وأشواك. فهو يسقط بهذه الإساءة من (السوبرمان) إلى أحط إنسان في الوجود، وسيدرك ساعتها أن كل إفساد لابد له من حق يوقفه، وأن كل عُلوّ لابد له من انخفاض يهبط به. وطبيعة الأشياء والحياة هكذا. فلا يمكن أن يدوم إفساد ولا يمكن أن يبقى علو ولو كان في أرقى حضارات البشرية.

والواقع أن الشخصية اليهودية عبر التاريخ كانت شخصية مرتعبة مهزوزة ذليلة، ولعل أهم سبب في ذلك ارتهان هذه الشخصية للحرص على الدنيا. فأي اهتزاز في مكونات الحلم الدنيوي اليهودي يعني بالنسبة له فقدان أرقى أهدافه وفقدان مبرر وجوده. ولهذا السبب لجأ اليهود في الماضي والحاضر إلى القوة في تحقيق توازنهم النفسي الدنيوي. في زمن رسول الله ﷺ تحصنوا في حصون وقلاع وظنوا أنهم يحمون أنفسهم. لكن إرادة الله شاءت أن تحطم الحلم بالتحصين والقوة. وكذلك فهم اليوم يرتكزون في توازن شخصيتهم النفسي من خلال السلاح النووي والأسلحة المتفوقة الأخرى.

ويدركون أن الإذلال المطلق الذي صبه عليهم الله تعالى في خيبر وقريظة سيصبه عليهم مهما كانت قوتهم. وهم يحاولون بشتى السبل غير المشروعة إثبات قدرتهم في درء الإساءة لوجوههم وإذلالهم.

وفي الواقع النفسي اليهودي ترى ازدواجية في تركيب الشخصية اليهودية. فهي في قراءة النفس ذليلة مستكينة، وفي الوجدان العنصري الاستكباري تريد أن تقلل من هذا الشعور بالذل، ولكن المسألة تأخذ أبعاداً أخرى حيث تساعد الظروف الواقعية العربية على شعور اليهودي بالتفوق، إذ إن هذا الواقع العربي كان أكبر مساعد على تصديق اليهودي نفسه أنه الأقوى والأجدر بالبقاء.

الإذلال التمهيدي مقدمات صغرى:

مما لاشك فيه أن اليهودي الذي عانق الوهم عام 1967 وسيطر عليه التضخم بالأنا فقد التوازن النفسي والعقلي، وبات الواقع لا يشكل في ذهنه سوى طرق سهلة للانتصار السريع. لكن التحليل النفسي يقول إن مرض التضخم ينذر بالخطر أكثر، حتى إن بعض الحاخامات اليهود من فرق شرقية رأت في حرب 1967 إنذاراً إلهياً بأن نهاية «إسرائيل» قد اقتربت. وحسب تفسيراتهم نصوص التوراة وخاصة نبوءات دانيال وحزقيال فإنهم يرون في حرب 67 تجاوزاً لحدود الرب. وهذا التجاوز لن يمر بسهولة بل هو قمة الهرم في العلو والإفساد اليهوديين. بمعنى أن قوة اليهود بلغت ذروتها في هذه الحرب وستبدأ بالانهيار رويداً رويداً. وما إن يتعرض اليهودي لأية هزة جديدة يفقد فيها عناصر من الجيش أو من الجمهور ستكون صدمة قاسية تعيد عنصر الرعب إلى الظهور، بعد أن كان قد اختبأ في اللاشعور اليهودي.

ومنذ 67 بدأ عنصر الرعب يظهر من جديد، وذلك من خلال ضربات المقاومة الفلسطينية التي أشعلت في بعض مراحلها ثورة صحيحة وحقيقية ضد المحتلين اليهود. ويأتي عام 1973 فتندلع حرب حقيقية بين العرب والكيان الصهيوني قتل فيها الكثير من جنود الجيش الصهيوني وضباطه. ولأول مرة في تاريخ المنطقة يؤسر الجندي اليهودي ويُذل، وتقام عشرات المقابر الجماعية لمن قُتلوا في الحرب.

وما يهمنا هنا تفسير ظاهرة إساءة الوجه التي تحدث عنها القرآن الكريم وهي، كما قلنا، الإذلال التمهيدي لانكسار هذا العدو المتضخم نفسياً.

غولدا مائير صرخت في اليوم الرابع للحرب وعبر الإذاعة: بأننا ـ أي اليهود ـ لا نحتاج شيئاً الآن سوى أن نطلب الرحمة من الرب. وكانت تبكي بكاء مراً في تلك اللحظة، كثير من المجندات اليهوديات صرحن للصحافة العبرية وأجمعن فيها على أنهن كن يصدقن أن تطبق السماء على الأرض ولا يصدقن أن جندياً من الجيش الصهيوني يقع أسيراً في أيدي العرب.

فهذا إن دل فإنه يدل على أن الانتفاخ المرضي لدى الشخصية اليهودية يتحول إلى صدمة نفسية عارمة لا تكاد توصف.

وعندما نحلل وجوه القادة الصهاينة وتصريحاتهم بعد كل عملية جهادية فلسطينية أو بعد سقوط قتلى من الجيش في جنوب لبنان نرى أنها شخصيات مرتبكة لا تستطيع أن تصدق الذي يجري. هذا اليهودي الذي بالأمس عام (1967) هزم العرب في ساعات، هو نفسه يتساقط ويتهاوى وتتناثر جثث أفراده هنا وهناك في بيت ليد وديزنكوف والقدس وعسقلان والجنوب اللبناني!!.

إن الناظر إلى وجه نتنياهو والزعماء الآخرين يرى خطوط الذل تجتاحه ويرى شفتيه جافتين ويديه هابطتين وفي كلماته لعثمة وارتجافاً.

كل ذلك ليس إلا إشارة لإساءة الوجه اليهودي. وتمهيداً لما هو قادم، والقادم هو أعظم بكثير، وإذا عدنا إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ ندرك أن ذلك قضاء الله سبحانه كما ورد في ما سبق من آيات ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو قضاء نافذ لا راد له، ولكن إساءة الوجه هنا ستكون شاملة مطلقة ـ وجوهكم ـ والكاف والميم الجمعية تدل على ذلك. وإن لم يكن هناك إذلال جماعي لليهود كافةً فإن ذلك يفتح احتمال عدم تمكن المسلمين من أن ينتصروا ويدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، ولذلك جاء الخطاب موجهاً بصيغة جمعية لا بعضية.

ولعلنا حين نتذكر آيات قرآنية أخرى تتحدث عن ذات الموضوع ندرك أن الله سبحانه قد كتب على اليهود الذلة والمسكنة، وأنه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب. فالذل والمسكنة تعنيان إساءة الوجه النفسية المستقرة في أعماق الشخصية اليهودية. لكن إساءة الوجه الوجهية أي الظاهرية، هي ظهور الذل والمسكنة ظهوراً تاماً على الشكل والسحنة، على الوجه بما فيه من عينين وفم وأنف، وإذا نظرنا إلى شخص ما أُذلّ إذلالاً تاماً سنرى وجهه غير وجهه الحقيقي، وفمه غير فمه الطبيعي وكذلك عينيه وأنفه. كل شيء سيتغير في وجهه. وهذا التغيير ليس بالأمر السهل على مخلوق وصل القمة في علوه وعنصريته وإفساده وتحكمه وقوته. وهذه الإساءة الوجهية لمثل هذا النوع من البشر تفقده أية قدرة على التحرك، فإما أن ينتحر وإما أن يُساق إلى حتفه وخلاص البشرية منه.

ولنا هنا أن نتذكر ما كان عليه هتلر وزعماء النازية، في أوج الانتصارات وفي أوج الانكسار. أكثر القادة النازيين ينتحرون، من رومل وغوبلز وهملر، حتى هتلر نفسه. ونعتقد أن الشيء ذاته ينطبق على بني إسرائيل واليهود الذين أفسدوا في الأرض وعلوا كما أفسدت النازية وعلت.

القدر الإلهي وإساءة الوجه:

عندما ننظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ نرى أن الله سبحانه ربط مجيء المرة الثانية بإساءة الوجه. والفعل ليسؤوا هو في الواقع فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد اللام أي لأن يسؤوا. وهذا يعني في شرح الآية أن مجيء وعد الآخرة يقترن بإساءة وجوهكم قبل أن يدخل عباد الله المسجد الأقصى. في هذا السياق تدلنا الآية الكريمة على أن هناك ثلاث مراحل متتالية تعقب مجيء وعد المرة الثانية. مرحلة إساءة الوجه، وهي الإذلال، ومرحلة دخول المسجد الأقصى وهي مرحلة النصر وعودة الأرض، ومرحلة التتبير وهي مرحلة تدمير كل مظاهر العلو والإفساد التي بلغ فيها اليهود ذروة مجدهم في البناء والعمران والقوة العسكرية والعلمية وما شابه ذلك.

فلا دخول للمسجد إلا بمرحلة الإذلال الكاملة. ولا تدمير لمظاهر العلو والإفساد إلا بتطهير المسجد الأقصى. ويلفت نظرنا هنا أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبهنا إلى أمر هام، وهو أن الإذلال الكامل يتبعه دخول الأقصى وهو دخول يعني بالنسبة لليهود التدمير الكامل لكل مشروعهم القائم على الإدعاء بأن المسجد الأقصى بني على ما يسمى الهيكل. فأعز مكان وأهمه بالنسبة لهم يحرر على أيدي الموحدين عباد الله. يُذلون ثم يزول هذا الوهم الذي صنعوه عن ارتباطهم بالمسجد الأقصى. واستكمالاً للإذلال تدمر لهم كل مظاهر علوهم وقوتهم، فيفقدون كل شيء. يفقدون النفس التي تأصلت على العنصرية والاستكبار والاستعلاء، ثم يفقدون الرمز الذي يربطهم به حاخاماتهم وهو المسجد الأقصى أي «الهيكل» الذي زُعم أنه تحت هذا المسجد، ثم أخيراً إفناء كل مظهر من مظاهر علوهم على أرض فلسطين.

وبمعنى آخر، فإن قضاء الله سبحانه يتحتم عليه عملية ثلاثية الأبعاد لابد أنها ضرورية ومهمة، وخاصة في تسلسلها القرآني وتسلسلها الفعلي الواقعي.

يبقى لنا أخيراً أن نقول: إن قدرية مجيء وعد الآخرة لا يعني استكانة المسلم وانتظاره لهذا القضاء، بل يعني أن تلك الساعة القدرية هي من خصائص الله سبحانه في توقيتها الزمني. فلا يعرف أحد متى ستبدأ ومتى ستنتهي لكن الفاهم لآيات القرآن الكريم يدرك أن من يسومهم سوء العذاب موجود في الواقع ولاشك، ولا تتخيل العذاب بمعناه التعذيب الجسدي المباشر بل هو عذاب نفسي متواصل. ولو دققنا في واقع اليهود منذ زمن بعيد حتى الآن نرى أنهم، وعلى الرغم من مظاهر القوة والعلو يعانون نفسياً معاناة يومية، فالقلق من المصير المجهول لا يفارقهم مطلقاً، فلهذا يعملون ليل نهار كي يظلوا متماسكين إلى أقصى حد، ولهذا أيضاً نرى علماء النفس لديهم يخوضون مع الجنود والمستوطنين جولات نفسية متواصلة حتى يبقى جمهورهم، إلى حد ما، متقبلاً لما يجري في جنوب لبنان، ولما يجري من عمليات استشهادية داخل فلسطين نفسها.

وإذا كان العذاب الذي يمرون فيه ساعة بساعة لم يبلغ مداه فإن ذلك لا يعني أن يتوقف الجهاد. فالجهاد متواصل، وكل إساءة لوجوههم مهما بلغ حجمها هي في المحصلة خطوة أخرى نحو وعد الآخرة الذي فيه تساء وجوههم جميعاً، ويذلون إذلالاً لا تقوم لهم بعده قائمة، لأنه كما قلنا، سيكون خطوة متسارعة وسريعة نحو دخول المسجد الأقصى وتدمير كل مظاهر علوهم وإفسادهم. فإذا تم ذلك فإن الإنسانية جمعاء ستبارك تنفيذ ذلك الوعد لأنها في المحصلة خلصت من عنصر الشر الأساسي في الوجود. وانتهى إلى الأبد عصر اليهودية الفاسدة التي دمرت العالم بشرورها وإفسادها وتدميرها القيم والعلاقات الروحية والإنسانية.

وقفة مع اللغة:

في الآيات السبع الأولى من سورة الإسراء قضايا لغوية لابد من التوقف عندها لتوضح لنا الأمور المتعلقة بفساد بني إسرائيل وعلوهم، وبعباد الله الذين هم الطرف المقابل في الصراع. ولعل الجدول الآتي يوضح ما نرمي إليه:

الآية الأولى المسجد الأقصى	الآية السابقة المسجد
لتفسدنّ	اللام واقعة في جواب قسم
عباداً لنا	عليهم الهاء تعود إلى عباد
ليسوءوا	الواو تعود على العباد
ليدخلوا	الواو تعود على العباد
ليتبروا	الواو تعود على العباد
عليكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
لكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
أمددناكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
جعلناكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
أحسنتم	تم: تعود على بني إسرائيل
لأنفسكم	كم: تعود على بني إسرائيل
وجوهكم	كم: تعود على بني إسرائيل
علّوا	الواو تعود على بني إسرائيل ـ دليلها لتعلُن
فإذا	ظرفية زمانية تدل على المستقبل وليس على الماضي أو الحاضر
جاء	فعل ماض ولكنه مقيد بإذا الشرطية الزمانية

فمن خلال ما تقدم نرى أن هناك طرفين في دائرة الصراع لا أكثر. الطرف الأول عباد لنا والطرف الثاني بنو إسرائيل. تتكرر الضمائر في الآيات لتحدد أن الطرفين هما وحدهما المقصودان في هذا الصراع.

1) توضيح: يرى بعض المفسرين أنه ليس شرطاً أن يكون العباد هم المسلمون فكل مخلوقات الله من البشر عباد الله. وللتوضيح نرى أنه لو كان المقصود غير المسلمين لما قال (لنا) بمعنى أن العباد يمتلكون من الخصوصية ما لم يمتلكْها غيرهم. ولو كان المقصود البابليين أو غيرهم كما يرى المفسرون لكان الأولى وصف بني إسرائيل بالعباد. فنحن نرى أن عباداً لنا خاصون لله وميزهم عن بني إسرائيل وغيرهم من البشر.

2) عبر التاريخ لم يتكرر صراع بين بني إسرائيل وفئة أُخرى مرتين. فالبابليون غزوا بني إسرائيل وأخذوهم أسرى ومكثوا في بابل سبعين سنة. ولكن لم يتكرر أن تقابل الطرفان مرة أخرى. إذ إن الفرس قضوا على الدولة البابلية وكان اليهود في بابل.

3) لو كان المقصود بعباد لنا غير المسلمين فما الذي يميزهم عن بني إسرائيل؟ فهؤلاء وثنيون غير موحدين، واليهود منحرفون فاسدون. فلا يمكن أن يوصف هؤلاء وهؤلاء بعباد لنا.

ونشير إلى رأي لمجلة الأزهر نقلاً عن كتاب الشيخ عبد الحميد كشك (نفحات من الدراسات الإسلامية) إن الثابت أن الإسراء وقع لرسول الله وهو بمكة قبل الهجرة، وسورة الإسراء نزلت في مكة كذلك فهي مكية الآيات. وكان المسلمون آنذاك قلةً مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، فلم يكن لبني إسرائيل يومئذ شأن مع المسلمين، ولم يكن لهم أثر بمكة ولا خطر يقتضي أن يتحدث الله عنهم في سورة مكية بمثل هذا التفصيل. فما السر في أن يخبر الله سبحانه عن إسرائه برسوله في آية واحدة ـ أول السورة ثم ينقطع بعدها الحديث عن الإسراء جملة إلى آخرها، ويبدأ الحديث عن بني إسرائيل وما أنعم الله عليهم وعهد إليهم، وعن دور خطير يكون

لهم؟ ما وجه المناسبة بين هذه الآيات والأحداث؟ السر في ذلك أن الله عز وجل يتحدث عن الإسراء بقدر ما يبشر به نبيه والمسلمين المضطهدين في مكة المستضعفين في الأرض، بأن أمرهم سيمتد ويعلو وشيكاً حتى تدين لهم عاصمة الشرك في مكة وعاصمة أهل الكتاب، فهو سبحانه يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ولم يقل من مكة إلى بيت المقدس كما هو واقع الحال.

وقد أشرنا من قبل إلى أن مكة أو الكعبة لم تكن مسجداً بل كانت بيتاً تقوم حوله الأصنام ويطوف به العائذون والمشركون، ولم يكن هناك معبد داود وسليمان في دولة يهودا مسجداً بالمعنى الإسلامي بل كان المعبد هيكلاً يأكل بنو إسرائيل من حوله السحت ويعيثون الفساد، بل يضعون فيه الأصنام ويبيعون فيه الحمام ويجتمع فيه اللصوص في زمن السيد المسيح.

لكن الله عز وجل تحدث عن هذا الإسراء بأنه انتقال من مسجد إلى مسجد تبشيراً للمسلمين، بأن أمرهم سيعلو بحيث يصبح البلد الذي استضعفوا فيه وهانوا، وأُحلت حرماتهم فيه مسجداً حراماً ودار أمن وسلام، ثم يستمر الرأي المنشور بمجلة الأزهر ويورده الشيخ كشك في كتابه قائلاً في تفسير آية: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذي قاموا به على عهد النبي وأصحابه وما عاقبهم الله وسلط عليهم فيه، ثم يقول: هذه المرة هي الأولى ولا تنطبق أوصافهم إلا على أصحاب رسول الله وذلك للأسباب التالية:

أ ـ فهم، أي أصحاب رسول الله، يستحقون شرف هذه النسبة (عباداً لنا)، لأنهم الموحدون أتباع (عبده) الذي ورد في أول السورة وهو الرسول الذي أسري به، أما أتباع بختنصر وسابور وسنحاريب، فاضطربت فيهم أقوال المفسرين، فقد كانوا عبّاد وثن ولا يستحقون شرف الاختصاص بالله في قوله عز وجل (لنا).

ب ـ وهم الذين وصفهم الله في كتابه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

جـ ـ وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلاَّ أن جاسوا خلال الديار، أما أتباع بختنصر فقد ذكروا أنه قَتَلَ منهم سبعين ألفاً، وأنه دخل بيت المقدس في أهله

وسلب حليه، فهو اجتياح وليس جوساً. ويستمر رأي الأزهر على نفس المنوال ليؤكد عنوان المقال (سورة الإسراء تقضي نهاية إسرائيل) والواقع أن الآيات الكريمة تشير إلى عدة أمور:

1 ـ يعلو بنو إسرائيل في الأرض مرتين مصحوبتين بإفساد، ومن المؤكد أن العلو الذي عاشوه في ظل بعض رسلهم لم يصحبه إفساد.

2 ـ ينتج عن هذا العلو والإفساد صراع ودمار وخراب في الوقت الذي يضع فيه القرآن بني إسرائيل طرفاً واضحاً وأكيداً في المرتين، فإنه يؤكد أيضاً على وجود طرف آخر يتكرر نفسه في المرتين تماماً كما يتكرر بنو إسرائيل طرفاً أول. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الطرف باسمه مرة واحدة في أول الآيات (عباداً لنا) ثم استمرت الإشارة إليه بضمير الغائب إلى آخر السياق تأكيداً على أنه نفس الطرف الذي يواجه بني إسرائيل في المرة الأولى فبعد قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ﴾، ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ـ أكثر منهم ـ ثم تأتي الأفعال المضارعة في قوله ﴿لِيَسُۥٓـُٔواْ﴾، ﴿وَلِيَدْخُلُواْ﴾، ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ فالضمير محل فاعل أو مفعول يعود في جميع الأفعال إلى كلمة ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ التي بدأ بها السياق القرآني، والضمير فاعل الأفعال الثلاثة الأخيرة ﴿لِيَسُۥٓـُٔواْ﴾ ﴿وَلِيَدْخُلُواْ﴾ ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ عائد كما هو واضح على ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ ما يؤكد أنها في الحالين معركة بين طرفين فقط أي بين المسلمين واليهود.

3 ـ من الواضح أن التفسيرات الأخرى تشير إلى مواجهة بني إسرائيل لأكثر من قوم، فمرة نبوخذ نصر، ومرة سنحاريب، ومرة الروم، ومرة الفرس، حتى العرب، وهذا يغاير ما اقتضته الآيات من أن المواجهة بين طرفين يتكرران في المرتين بمعنى، إذا كان صراع المرة الأولى مع الفرس أو الروم، فصراع المرة الثانية (الأخير) أيضاً معهم.

4 ـ لم يُعد الله سبحانه لليهود الكرة لا على نبوخذ نصر ولا على سنحاريب ولا الروم ولا الفرس، ولم يجعلهم الله أكثر نفيراً من هؤلاء. (فالآيات إشارة إلى أن اليهود يصبحون أكثر نفيراً، وما كان اليهود أكثر نفيراً من الروم أو البابليين. أما الآن

فقد استطاعوا أن يستنفروا كل أمم الأرض. ولم يكن اليهود في يوم ما أكثر نفيراً وناصراً منهم اليوم، ولم يتمتع اليهود في تاريخهم بمثل ما يتمتعون به اليوم[1].

5 ـ لقد رد الله الكرة لبني إسرائيل على المسلمين (العرب) كما هو واضح منذ سقوط القدس وقيام كيانهم واستمرار علوهم وإفسادهم.

6 ـ إن ردة الكرة على الرغم من أنها تجيء بعد زمن من القضاء على الإفساد الأول كما أن (ثُمّ التي تفيد العطف مع التراخي الزمني فإن ردة الكرة لن تستمر طويلاً كما تفيد الفاء في ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾، التي تفيد الترتيب والتعقيب، أو عندما يصلون بعد ردة الكرة إلى ذروة علوهم وإفسادهم، يكون هذا نفسه إيذاناً بالقضاء على هذا العلو والإفساد ومن قبل نفس العباد ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، وبالطريقة التي حددها القرآن الكريم إذلالهم ودخول المسجد الذي دخله هؤلاء العباد قبل ذلك في المرة الأولى، وهذا ما حدث في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهذه الطريقة في الانتصار كما حددها القرآن الكريم تختلف عن الطريقة التي تم بها الانتصار الأول وهي أن يجوس العباد ذوو البأس الشديد خلال الديار.

وهكذا فإن (ثُمّ) التي سبقت ﴿رَدَدْنَا﴾ والفاء التي سبقت ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ تشيران إلى الواقع الملموس، أي المسافة الزمنية بين القضاء على علوهم وإفسادهم الأول في الجزيرة العربية، وبين ظهورهم وهيمنتهم أي علوهم وإفسادهم الثاني، وكذلك إلى المسافة الزمنية القصيرة التي يستمر فيها علوهم وإفسادهم الثاني حتى يحين وعد الآخرة والقضاء على علوهم وإفسادهم.

7 ـ إن فعل الابتعاث الوارد في مطلع الآيات يحمل من المعاني والدلالات ما ينبغي الوقوف عنده، فالفعل هنا يحمل إيحاءات الرضا، والرضا لا يكون من الله على الوثنيين والمشركين، بل يكون على المؤمنين، وقد جاءت كلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ في القرآن الكريم سبع مرات كان الفاعل فيها جميعاً هو الله، وكان المفعول به أي المبعوثين هم الأنبياء والمؤمنين والصالحين.

---

(1) فأمريكا القوة العظمى في العالم والغرب الصليبي جميعهم مع اليهود. وهم يمتلكون كل أسباب القوة والنفير من أسلحة دمار ومال.

فقد وردت في سورة المائدة الآية 12، وفي الأعراف الآية 103، ويونس الآية 74 ويونس 75، والنحل 36، والإسراء الآية 5، والفرقان الآية 51.

ووردت كلمة ﴿بَعَثَ﴾ أيضاً سبع مرات في مجال الرضا والمديح في البقرة مرتين الآيتين 213 ـ 247، وفي آل عمران 164، وفي المائدة 31، والإسراء 94، والفرقان 41، والجمعة آية 2.

فلا يُعقل أن ينسب كلمة﴿بَعَثْنَا﴾ إلى غير الموحدين لأن الوثنيين لم يُمدحوا في القرآن الكريم، بل ذمهم الله لأنهم حلفاء الشر والشيطان، وأعداءٌ لله وتعاليمه وأنبيائه. أما قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ فمعناه أن الله سبحانه عندما يعيد الكرة لبني إسرائيل يمدهم بأموال وبنين. وكل مراقب يرى هذا الإمداد في الأموال والبنين. والواقع أنه لولا الدعم الأمريكي الغربي المالي لبني إسرائيل لما قامت لهم قائمة، ولولا تدفق المهاجرين وخاصة من الاتحاد السوفياتي السابق، لما كان عدد اليهود على ما هو عليه اليوم. فالعدو الصهيوني لا يعتمد اقتصادياً على ذاته على الرغم من تقدمه العلمي النسبي، وإنه بدون إمدادات المليارات من الدولارات كل عام لا يستطيع الصمود والوقوف على رجليه. وقد كان أساس المشروع الصهيوني في الهجرة بشتى أشكالها.

والواقع أن العدو الآن أكثر قوة من العرب جميعاً، وأكثر نفيراً على الرغم من كثرة العرب المتفرقين، فالعدو يستطيع أن يهدد كلّ الأقطار العربية بما يملكه من أسلحة، ولكن قوة العدو تأتي على حساب ضعف العرب والمسلمين.

ويلاحظ المرء أنه لأول مرة في التاريخ يبدأ تجمع اليهود من كلّ أقطار الدنيا في فلسطين، والإحصائيات تشير إلى أن اليهود يتشكلون الآن في فلسطين من أكثر من ثمانين عرقاً ومنهم من يمتلك الأموال التي تتحكم بالعالم، إضافة إلى أن المهاجرين الروس وغيرهم من الأوروبيين مؤهلون علمياً إلى أعلى المستويات، ويبلغ مجموع اليهود في فلسطين الآن حوالي خمسة ملايين يهودي، وهذا العدد من اليهود يجتمع لأول مرة في التاريخ في فلسطين.

ولا يُنسى أن اليهود خارج فلسطين يسيطرون على المال والإعلام ويتحكمون بتوجهات السياسة الخارجية لأقوى البلدان الأوروبية وأغناها. وكل ذلك خدمة للمشروع الصهيوني الذي مركزه الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾.

فإن ذلك يعني قضاء الله بانتصار المسلمين على اليهود وتدميرهم ما شيدوه، وقد أكد ذلك حديث رسول الله ﷺ حين قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)[1] وفي رواية أخرى (ستقاتلون اليهود أنتم شرقي النهر وهم غربيّه) وقيل أي نهر الأردن وقد أكد هذه الرؤية وهذا التفسير كل من المفكر الإسلامي محمد أبو القاسم حاج حمد في كتابه العالمية الثالثة. والدكتور سعيد البوطي حين علق على حادثة الإسراء في كتابه المهم فقه السيرة.

يقول الدكتور البوطي: (إن في الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات السبع، لدلالةً باهرةً على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضاً على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل به.

وفيه دلالة على مدى ما ينبغي أن يوجد لدى المسلمين في كل عصر ووقت من الحفاظ على هذه الأرض المقدسة وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين. وكأن الحكمة الإلهية تهيب بمسلمي هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة، وأن يطهروها من رجسهم ويعيدوها إلى

---

(1) صحيح البخاري ج3 كتاب الجهاد والسير.

أهلها المؤمنين[1]. وتؤكد الرؤية الإسلامية موقفها هذا من تفسير سورة الإسراء على ضوء بعض الآيات القرآنية الأخرى التي تؤكد انتصار المسلمين على اليهود.

يقول تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ سورة الإسراء الآية 104.

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأعراف الآية 167.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ الأعراف 168.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ. . . ﴾ قال الذين يسومونهم سوء العذاب محمد وأمته إلى يوم القيامة، وفي قوله ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ ﴾ قال هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس في الأرض بقعة ما إلا وفيها عصابة منهم وطائفة.

ويقول الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه (نقد التوراة: أسفار موسى الخمسة). وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الأمر ـ احتلال اليهود للقدس ـ في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ الكتاب هو التوراة والمرتان يكونان في المستقبل من بعد نزول القرآن، وبعد المرتين يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أي إنه لابد من تحديد مرتين، وفي كل مرة إفساد وعلو، وإذا جاءت المرة الأولى ليفسدوا

(1) محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة ص 152 ـ 153.

ويعلوا يبعث الله عليهم عباداً له أولي بأس شديد لا يهزمون اليهود مرة واحدة بل بطريقة الجوس، وهو التردد، أي يطردونهم من أرض كنعان على مراحل رويداً رويداً لا مرة واحدة، حتى يتم تحرير الأرض التي أفسدوا فيها وعلوا، ثم بعد مدة من الزمان (دانيال 12 : 11 ـ 12 يأتي اليهود إلى أرض كنعان، كما أتوا في المرة الأولى ليفسدوا ويعلوا، وإذا تم لهم ذلك في المرة الثانية وأساؤوا وجوه المسلمين ودخلوا أرض المسجد الأقصى كما حدث في المرة الأولى عام 1967، سوف يهزمون إذا شاء الله، وإذا تمت هزيمة اليهود في المرة الثانية وعادوا بعدها للفساد والعلو سوف يقيض الله لهم من يهزمهم كما حدث في المرتين السابقتين.

ويتابع الدكتور السقا بقوله: هذا النص موجود في الإصحاح الثامن من سفر دانيال، هذا الإصحاح الذي لا يشك أحد في أنه بدء سفر دانيال الحقيقي، ذلك لأنه بدأه بقوله: في السنة الثالثة من ملك بيلشاصر الملك، ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء) ومن كلمات هذا النص [خرج قرن صغير وعظم جداً نحو الجنوب ونحو الشرق، وتعظم حتى إلى جند السموات، وطرح بعضاً من الجند والنجوم إلى الأرض وداسهم وحتى إلى رئيس الجند تعظم، وبه أبطلت المحرقة الدائمة وهدم مسكن مفسده، وجُعل جند على المحرقة الدائمة بالمعصية فطرح الحق على الأرض وفعل ونجح، فسمعت قدوساً واحداً يتكلم فقال قدوس واحد لفلان المتكلم إلى متى الرؤيا من جهد المحرقة الدائمة ومعصية الخراب لبذل القدس والجند مدوسين فقال لي إلى ألفين وثلاث مائة صباح ومساء، فيتبرأ القدس (دانيال 8 : 6ـ14). وقد بين دانيال في نفس الإصحاح أن الرؤيا لوقت المنتهى فرؤيا المساء والصباح التي قيلت هي حق. أما أنت فاكتم الرؤيا لأنها إلى أيام كثيرة، دانيال 8 : 26 وبيّن دانيال في الإصحاح الثاني عشر وهو يتحدث عن المرة الثانية أن المرتين تكونان بعد تشتت اليهود من أرض كنعان، والمعروف أن نفوذهم زال تماماً بعد استيلاء المسلمين على أرض كنعان في خلافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. يقول دانيال: (فإذا تم تفريق أيدي الشعب المقدس تتم كل هذه) دانيال 12 : 7، اذهب يا دانيال لأن الكلمات مخفية ومختومة إلى وقت النهاية، دانيال 12 ـ 9.

والإصحاح الثامن من سفر دانيال يتحدث عن ملوك اليونان وقد احتل الإسكندر بلاد الشام عام 333 ق.م، ودخل اليهود في طاعته. والنص يقول: إن المرة الأولى بعد ألفين وثلاثمائة، فيكون الحساب هكذا 2300-333=1967 بعد الميلاد[1].

ويقول محمد حسن شراب في كتابه بيت المقدس والمسجد الأقصى: إن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ليشير إلى أن اليهود الذين تسلطوا على بيت المقدس عند تعاونهم مع الفرس المجوس سوف يُجلَون عن القدس؛ لأنه مكان مقدس ينزه عن أمثالهم، لما ارتكبوا من الجرائم فيه، وأن المسجد الأقصى سوف يتولى حمايته أتباع محمد ﷺ وعلى أصحابه وسلم، ويُجمع لهم مركز الدعوة الإبراهيمية[2].

بعد عرض لبعض الآراء التي تفسر سورة الإسراء وتؤكد جميعها أن صراعاً قادماً سوف يحدث بين المسلمين واليهود، وأن المسلمين سينتصرون فيه ويحررون المسجد الأقصى مرة ثانية، لابد لنا من التوقف عند بعض الأسئلة التي تثير جدلاً حول بعض القضايا المرتبطة بهذا التفسير.

1 ـ الخطاب القرآني كان موجهاً إلى بني إسرائيل ويهود اليوم الذين يحتلون فلسطين هم خزريون أو متهوّدون من عدة أجناس، فما علاقتهم ببني إسرائيل؟ إن توجيه الحديث في القرآن الكريم كان لبني إسرائيل، وبنو إسرائيل كانوا قديماً وانقرضوا، وانقرضت معهم الأحداث، فكيف نوفق بين بشرى الله للمسلمين بالنصر على بني إسرائيل واليهود اليوم ليسوا من بني إسرائيل؟

2 ـ لماذا كان يصلي رسول الله ﷺ باتجاه المسجد الأقصى ولم يصلِّ باتجاه البيت الحرام على الرغم من أن البيت الحرام أقدم من المسجد الأقصى؟ ثم لماذا بُدِّل اتجاه القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام؟.

---

(1) أحمد حجازي السقا: نقد التوراة. أسفار موسى الخمسة صفحة 164 ـ 165.

(2) بيت المقدس والمسجد الأقصى، محمد حسن شراب صفحة 71.

3 ـ لم يرد نص قطعي في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحدد الإفساد الثاني متى جرى، ولم يرد أيضاً أي نص قطعي يحدد زمن انتصار المسلمين على اليهود. فكيف نوفق بين الرؤية الإسلامية التي تفسر سورة الإسراء بهذا المنحى وبين هذه الثوابت؟.

الإشكال الأول:

من المعروف أن اسم إسرائيل أطلق على يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعنى كلمة إسرائيل عبد الله، حسب ما جاء في القواميس وحسبما تعارف عليه المفسرون المسلمون. وبنو إسرائيل أطلقت على أسباط إسرائيل الأثني عشر الذين ينتسبون إلى أولاد يعقوب الاثني عشر، ومعنى السبط القبيلة أو العائلة. وقد تعني أيضاً تحديداً أولاد يعقوب: يهودا وشمعون ورأوبين وجاد وإشير ويساكر وزبولون ونفتالي ولاوي ودان وبنيامين ويوسف، وقد ذكروا بالأسماء في التوراة ولم يذكروا بالأسماء في القرآن الكريم، بل أشار إليهم بأنهم أسباط بني إسرائيل.

وقد اعترفت التوراة بأن يعقوب عندما استدعي من قبل ابنه يوسف أيام وجوده في مصر ذهب إليه أبوه ومعه أولاده ونساء أولاده وبعض أحفاده، وقد بلغوا بضعةً وسبعين نفراً بين رجل وامرأة، وسموا بأبناء إسرائيل أي أبناء يعقوب. وحين نطالع عصر النبي موسى عليه السلام نجد الخطاب يتجه إلى بني إسرائيل. وهذا يعني أن بني إسرائيل ظلوا في مصر، وتكاثروا، وحين تعرضوا للاضطهاد أنقذهم موسى من فرعون بمعونة الله سبحانه وتعالى. وعندما دخلوا سيناء ظل الخطاب موجهاً إليهم على أنهم بنو إسرائيل.

وعلينا أن نلاحظ أن الذين خرجوا مع موسى من مصر لم يكونوا بني إسرائيل وحدهم بل كان قد آمن بموسى آخرون، منهم السحرة الذين غُلبوا وآمنوا برب موسى، وهؤلاء السحرة لم يكونوا من بني إسرائيل بل هم من بلدان متناثرة في مصر، وقد اعترفت التوراة بذلك. ولا ننسى أن السحرة كانوا كثيرين، وإذا افترضنا أنهم هربوا مع عائلاتهم فإنهم بذلك يشكلون مجموعة كبيرة هاجرت مع موسى وبني إسرائيل.

وعلى الرغم من ذلك أيضاً فقد هرب مع موسى بعض العبيد المصريين الذين آمنوا بديانة التوحيد، وعلى الرغم من هذا وذلك ظل الخطاب موجهاً إلى بني إسرائيل دون أن يوجَّه إلى غيرهم على الرغم من أن معهم الكثير ممن ليسوا من بني إسرائيل.

وبعد موت موسى ومرحلته، تأتي مرحلة داود وسليمان، وظل الخطاب موجهاً إلى بني إسرائيل، وكذلك الأمر في مرحلة السيد المسيح عليه السلام، فقد بعثه الله لبني إسرائيل بعد أن انحرفوا انحرافاً كلياً عن تعاليم التوراة، وحرفوا الحق إلى الباطل والتوحيد إلى الشرك.

وبعد هذه المراحل نرى أن الخطاب أصبح يتوجه إلى اليهود إضافة لبني إسرائيل، وهذا يعني أن اليهودية عقيدة تطورت حسب الظروف وكسب اليهود صفة ما كان عليه أجدادهم من بني إسرائيل الذين عايشوا النبي موسى وما بعده.

ولنسر مع الآيات القرآنية حسب ما وردت في المراحل التي مر بها الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل.

أ ـ الخطاب القرآني في الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ سورة آل عمران الآيات من 65 ـ 68.

وفي الخطاب القرآني أثناء الحديث عن يعقوب عليه السلام: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ سورة البقرة 133 ـ 134.

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن الأنبياء الأوائل والأسباط:

يقول تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة آية 140.

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن موسى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ الإسراء 2.

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن داود عليه السلام: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ المائدة 78.

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن بني إسرائيل وداود عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة 246.

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن مريم وعيسى المسيح عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آل عمران الآيات 45 ـ 49.

إن الآيات القرآنية كثيرة في هذا السياق، ولكن اكتفينا بهذه الآيات لتكون دليلاً على ما قلناه من أن الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل بدأ بشكل واضح منذ النبي موسى عليه السلام وانتهاء عند النبي عيسى عليه السلام.

أما خطاب القرآن لليهود فقد جاء في سياق الصراع بين النبي محمد ﷺ واليهود في المدينة.

وقد جاء خطاب أهل الكتاب ليشمل اليهود والنصارى بعد أن نزلت التوراة وبعد أن نزل الإنجيل، وأصبحوا متميزين عن غيرهم من باقي البشر.

فعلى سبيل المثال يقول تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ آل عمران 69 وواضح أن الخطاب موجه إلى أمة الإيمان أمة محمد ﷺ.

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ آل عمران 98.

ويقول تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المائدة 18.

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة 51.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ المائدة 64.

لقد وردت كلمة بني إسرائيل حوالي إحدى وثلاثين مرة موزعة على القرآن كله.

ووردت كلمة أهل الكتاب أكثر من سبعين مرة مشتملة على اليهود والنصارى.

ووردت كلمة هود ثلاث عشرة مرة مشتملة كلمة (هادوا).

ووردت كلمة يهود تسع مرات فقط، معرفة ونكرة.

ويقول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ البقرة 113.

نعود إلى المسألة الخاصة بهذا الخطاب، فالواضح أن بني إسرائيل أطلقت على من اتبع إسرائيل وأبناءه حتى موسى عليه السلام، لأن نزول التوراة عليه حدد العقيدة اليهودية التوراتية فأصبح الخطاب مزدوجاً، إذ إن الحديث عن بني إسرائيل صار يتضمن الحديث عن يهود أي عن أتباع العقيدة التوراتية.

وخلال الصراع بين النبي محمد ﷺ واليهود في المدينة أصبح الحديث موجهاً إلى أهل الكتاب؛ أي الذين نزل على نبيهم كتاب، ويشمل ذلك أتباع موسى عليه السلام وأتباع عيسى عليه السلام. والخطاب بأهل الكتاب في هذا السياق لم يأت عبثاً بل كان مقصوداً ليذكّرهم بأنهم أصحاب كتاب منزل من السماء ويدعو إلى التوحيد، فلمَ لا يقرون بهذا الكتاب ـ القرآن ـ الذي بيّن تعاليم التوراة والإنجيل وأنبأ بها رسول الله عليه الصلاة والسلام وهي من أنباء الغيب؟ وما كان رسول الله ﷺ ليعلمها لولا القرآن العظيم.

ومع ذلك كله فقد أشار القرآن الكريم إلى تشتت بني إسرائيل ونهاياتهم الأولى.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف 167 ـ 168 فهذه إشارة واضحة إلى تشتيتهم فرقاً بل أمماً ينتشرون في الأرض.

بنو إسرائيل انتشروا في الأرض، ولكن هل بقي هؤلاء على نقاء عنصرهم إذا كانوا يدّعون أنهم من عنصر واحد؟

الواقع أن بني إسرائيل الذين أصبحوا يهوداً وأهلَ كتاب بعد نزول التوراة نشروا عقيدة اليهودية في أوساط عالمية كثيرة. نشروا اليهودية في أوساط الحكام العرب في اليمن زمن ذي نواس الذي اعتنق اليهودية نكاية بالمسيحيين الأحباش،

وأجرى مجزرة بالمسيحيين العرب من أصحاب الأخدود الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم. ومن اليمن تسربت اليهودية إلى الحبشة سراً، وتبعها بضعة آلاف من زنوج الحبشة حتى أصبحوا فيما بعد يهود الفلاشا. وفي الغرب تبنت مملكة الخزر العقيدة اليهودية وعلى رأسها ملكها، وفرض هذا الملك اليهودية على شعبه وانتشرت بشكل أوسع حتى قضي على هذه المملكة، فهاجر يهود الخزر إلى أوروبا الشرقية وأنشؤوا ما يسمى الغيتوات أي الحارات اليهودية المغلقة.

فإذا عدنا إلى سورة الإسراء والحديث عن قضاء الله لبني إسرائيل فإنه يعني كل من تبنّى التوراة كتاباً وتبنى اليهودية عقيدة. ولم يعد مصطلح بني إسرائيل ينحصر في أبناء معينين بل هو يطلق على أصحاب عقيدة أساسها بنو إسرائيل. أساسها هم في الانتشار وقصص التاريخ وما إلى ذلك.

وهذا يقاس أيضاً على خطاب الله سبحانه لمن تبع محمد ﷺ. فهم الذين آمنوا وظل يطلق عليهم اسم الذين آمنوا على الرغم من أنهم في غالبيتهم من العرب القرشيين ومن العرب الأنصار من الأوس والخزرج. وليس هذا معناه أن كل من آمن بالإسلام ديناً لم يكن عربياً لا ينطبق عليه هذا الاسم. فأمة الإيمان هي الأمة التي آمنت بالله واحداً وبالرسول محمد نبياً، وتشمل هذه الأمة كل العروق والأجناس والشعوب المنتشرة في كل الأرض وما ينطبق على هذا ينطبق على ذاك.

2 ـ الإشكال الثاني في توجُّه رسول الله ﷺ نحو القدس في صلاته مدة ستة عشر شهراً على أكثر الأقوال، ثم تحوله بالصلاة نحو المسجد الحرام.

فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو أخواله من الأنصار، وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت الحرام، وأنه ﷺ صلى أول صلاة العصر وصلى معه قوم. فخرج قوم ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة فداروا كما هم قِبَل

البيت، وكان اليهود قد أعجبهم، إذ كان يصلي قِبَل بيت المقدس. فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك)[1].

ومن طريق أخرى عن البراء بن عازب «كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فتوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من اليهود: «ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

فصلى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر يصلون نحو بيت المقدس، فقال: من يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة[2].

وقد أورد ابن عباس أن الرسول ﷺ كان يصلي باتجاه بيت المقدس وهو في مكة قبل الهجرة، لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فقد أخرج الطبري وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة واليهود يستقبلون بيت المقدس أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يستقبل بيت إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت. ومن طريق مجاهد قال إنما كان يحب أن يتحول إلى الكعبة لأن اليهود قالوا: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا فنزلت.

وإذا عدنا إلى آيات القرآن الكريم رأيناها تتحدث عن المسألة بشكل مفصل ومهم.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ

(1) صحيح البخاري. كتاب الإيمان باب الصلاة من الإيمان.

(2) كتاب الصلاة. المصدر السابق.

ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة 143 ـ 146 .

وقد سبق هذه الآيات الآية 142 التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

بداية الآيات هذه الآية وهي من أخبار الغيب ، والحكمة من الإخبار بما يقوله المجرمون قبل وقوعه توطين نفوس المؤمنين على الصبر إذ المفاجأة بالمكروه أشد ، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم .

ومعنى الآية أن السفهاء من الناس سيتساءلون لماذا صُرف المسلمون عن الصلاة والتوجه نحو القدس .

يأتي سياق الآية الأخرى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فاختيار الله سبحانه الكعبة مكانا للتوجه هو بمنزلة الاختيار الوسط لأمة الإيمان . فاليهود يتوجهون في صلاتهم نحو المسجد الأقصى ، والنصارى يستقبلون مطلع الشمس ، والمسلمون يستقبلون الكعبة ، وسياق الآية يدل على حكمة إلهية المراد من تحويل القبلة فيها هو الامتحان للمؤمنين ، ولتأليف قلوب اليهود . وقد توجه الرسول في استقبال الأقصى بأمر من الله ليمتحن الله به الناس ويميز من يتبع الرسول في التوجه إليها ممن يرتد عن دينه شكاً وتحيراً . وتقول الأخبار إن بعضهم

قد ارتد، لقد كان التوجه إلى الكعبة امتحاناً كبيراً وشاقاً على ضعفاء الإيمان، لكن الذين كتب الله لهم السعادة ثبتهم على الإيمان واتباع الرسول ﷺ، فلم يرتابوا. وقد ذكرت كتب السيرة أن النبي ﷺ كان يحب بطبعه أن يستقبل الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأقدم القبلتين وأدعى للعرب للإيمان، ومخالفة اليهود الذين ناصبوه العداء، وقال لجبريل: وددت لو حوّلني الله إلى الكعبة فقال جبريل إنما أنا عبد مثلك وجعل عليه الصلاة والسلام يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل عليه السلام بما يحب من أمر القبلة، فأنزل الله الآية القائلة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾ واليهود كما قالت الآية الكريمة يعرفون أن ما قام به الرسول من تحويل القبلة هو بأمر رباني هو الحق من ربهم، ويعرفون أن من صفات النبي أن يتوجه نحو قبلتين الكعبة وبيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ تعني أن صفة النبي يعرفونها كما وردت في توراتهم مثل معرفتهم أبناءهم، وقد قال عبد الله بن سلام وهو من اليهود الذين أسلموا وحسن إسلامهم: لقد عرفته كما أعرف ابني ومعرفتي محمداً أشد فقال له عمر رضي الله عنه ولمَ؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت.. فقبّل رأسه.

وإن فريقاً من أهل الكتاب ليكتمون الحق وينكرون صفات النبي الموجودة في كتبهم أما قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾. فهي توضح أن اليهود لن يؤمنوا ولو أتى النبي ﷺ بكل الآيات البينات على نبوته. ولن يتبعوا قبلة الرسول. ولذلك لن يتبع الرسول قبلتهم نكاية بهم. وهم بطبيعتهم لن يتبعوا قبلة بعضهم وهذا يعني أنهم يتوجهون نحو عدة أمكنة وليس إلى مكان واحد. وقد ذكرنا سابقاً أن اليهود انقسموا في التوجه إلى المعبد المركزي حين أقام آخاب بن عمري الملك اليهودي معبد زربابل في دويلة يهودا، وظل بعض بني إسرائيل يتعبدون في ما يسمى الهيكل حسب ما أوردته التوراة.

وإن معبد زربابل صار مهوى اليهود في غالبيتهم. إضافة لذلك فالآية تشير إلى أن اليهود لن يتبعوا قبلة النصارى ولا النصارى سيتبعون قبلة اليهود وهم جميعاً أهل كتاب.

وفي هذا السياق يرد سؤال: كيف يتوجه الرسول ﷺ نحو الكعبة آنذاك وهي مليئة بالأصنام؟.

الواقع أن توجه المسلمين نحو الكعبة هو توجه نحو رمز التوحيد الذي بناه إبراهيم، والأصنام طارئة عليه بعد إبراهيم، وأن الرسول ﷺ عندما فتح مكة حطم جميع الأصنام الموجودة في مكة وداخل الكعبة. وعندما أشار القرآن الكريم إلى الكعبة بلفظ المسجد الحرام كان يعني تماماً إرجاع هذا البيت إلى ما كان عليه قبل دخول الوثنية فيه. ووجود الأصنام الطارئ لن يغير من حقيقة هذا البيت وعلاقته بالتوحيد؛ فهو أقدم من الصنمية وأثبت. وهذا بالفعل ما جرت به الأمور منذ فتح مكة وإلى هذا العهد.

وقد يرد سؤال آخر يقول: كيف توجه رسول الله ﷺ نحو المسجد الأقصى وقد كان بأيدي الرومان آنذاك أو كان أثراً بعد عين لا يُعْرَف مكانُه بعد أن حوله الرومان إلى أرض خراب؟

وحقيقة الأمر أن رسول الله ﷺ توجه نحو بيت المقدس باعتباره ذا علاقة محددة بالأنبياء الذين سبقوه كداود وسليمان وعيسى عليهم السلام، وهو معروف آنذاك من قبل مجموع الشعوب المحيطة به. فتحويله أو حرث أرضه لا يلغي وجوده السابق في هذه المنطقة. ثم إن الإسراء برسول الله ﷺ ترك أثراً مادياً وهو حائط البراق والصخرة المشرفة. وما إن حرر المسلمون بيت المقدس حتى شرعوا يقيمون المسجد فوق الصخرة المشرفة، وأعادوا الاعتبار للقدس من خلال إعادة المعبد الخاص بالأنبياء، الذين دأبوا على التعبد لله فيه، وقد سبق القول عن ذلك أثناء الحديث عن ورود كلمة محراب في أربع آيات خاصة بداود ومريم وزكريا عليهم السلام.

ملاحظة:

إن صلاة الرسول ﷺ وتوجهه فيها نحو بيت المقدس ونحو الكعبة، واعتراف اليهود أنفسهم بأن هذا النبي سيصلي باتجاه قبلتين لهو دليل مهم على استكمال دائرة التوحيد التي أتمها الرسول محمد ﷺ. فهو جمع بين قبلتين، الكعبة وبيت المقدس ليؤكد أنه أولى الناس باستكمال ما جاء به الأنبياء جميعاً من عقيدة التوحيد، وأن المسلمين أحق الناس بحماية الكعبة وبيت المقدس والإشراف عليهما؛ لأنهم حملة رسالة التوحيد كما جاءت، كاملة مكملة لما سبق. والآية الكريمة التي جمعت بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى تأكيدٌ لذلك واستشراف رباني للمستقبل بأن هذين المكانين سيكونان مسجدين مقدسين لأمة الإسلام.

الإشكال الثالث: طرحنا سؤال الإشكال الثالث الذي يقول: إنه لم يرد نص قطعي في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحدد زمن الإفساد الثاني، ولم يرد أي نص قطعي يحدد زمن انتصار المسلمين على اليهود، فكيف نوفق بين الرؤية الإسلامية التي تفسر سورة الإسراء بهذا المنحى، وبين هذه الثوابت؟.

نقول: إن القرآن الكريم نزل على محمد ﷺ بعد المسيحية بـ حوالي 570 عاماً، وإن الحديث عن إفساد بني إسرائيل يعني أمة الإسلام بحاضرها، أي منذ بدء الدعوة واستمراراً للزمن الآتي بعد محمد ﷺ.

ويفسر معنى الإفساد الأول، سورة الحشر إذ يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الحشر الآية 2 ـ 4.

فأهل الكتاب هم اليهود الذين كانوا يساكنون الأوس والخزرج في المدينة وما حولها، ومعروف أن اليهود كانوا من عدة قبائل، كبني عوف، وبني النضير، وبني قريظة، وبني قينقاع وغيرهم.

وقد بلغ اليهود ما بلغوه من الإفساد والعلو. وتذكر وقائع التاريخ كيف كانوا يسخرون من الأوس والخزرج وبأيديهم الأموال التي يرابون بها. وكانت لهم حصونهم القوية. فعندما نقضوا العهود مع رسول الله ﷺ وحاولوا قتله والغدر به أكثر من مرة حاصرهم الرسول ﷺ بضعة وعشرين يوماً حتى أجلوا من المدينة.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي إن الرسول عليه الصلاة والسلام حاصرهم وحشرهم حتى استسلموا ورُحّلوا من المدينة. وأول الحشر تعني أن هناك حشراً آخر. وقد أجمع بعض علماء التفسير المعاصرين ومنهم المفكر الإسلامي العربي السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد، على أن الحشر الثاني يفسره قول الله تعالى في سورة الإسراء ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾.

ولشدة قوتهم ظن المسلمون أنهم لن يستطيعوا عليهم لكثرة عددهم ووفرة عدتهم ومَنَعة حصونهم. وقد ظن اليهود أيضاً أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وقوة جنوده. وحصونهم كما ذكرت في كتب التاريخ والسيرة هي: الوطيح والنطاة والسلالم والكتيبة. فعلى الرغم من ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب وأُخرجوا من المدينة وقد أخذوا يقتلعون أبواب بيوتهم وما حُسن من الأعمدة الخشبية، وفي كلمة جلاء في الآية عبرة. حيث لا يُجلى الناس إلا لأنهم غرباء في الأصل، ونقول جلى المستعمر أي خرج ولم يعد له أثر. وهكذا فقد قضى الله عليهم بالجلاء وليس بالخروج. وقد دخل المسلمون مدن اليهود وقلاعهم فجاسوا خلال الديار كما جاء في سورة الإسراء.

ويرى بعضهم أن جوس الديار أيضاً حدث في بيت المقدس حيث دخل عمر رضي الله عنه القدس صلحاً، ودخل المسلمون معه. وهذا أيضاً هو جوس الديار المعنية بالقدس والله أعلم.

وعلى هذا يكون الإفساد الأول هو الإفساد الذي حدث في المدينة المنورة زمن الأوس والخزرج ثم ما تبع ذلك من انتصار المسلمين عليهم.

ومنذ ذلك الوقت لم يتجمع اليهود في أي مكان من الأرض العربية، فقد امتدت الفتوحات الإسلامية، وحرر الأقصى، وظل محرراً حتى العصر الحالي، أي إلى عام 1948 حين احتل الصهاينة فلسطين وأقاموا على أرضها كيانهم الغاصب.

والواقع أن اليهود الآن يشكلون قوة هائلة في المنطقة، وبسبب ضعف المسلمين وابتعادهم عن روح القتال والجهاد، استطاع الصهاينة أن يهددوا الأمة بأسرها، ويستجلبوا البنين من يهود العالم، ويجمعوا الأموال اللازمة لصناعة السلاح وتطوير أرقى أشكال التكنولوجيا.

وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ الإسراء 6.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ الإسراء 7.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ سورة الإسراء الآية 104.

والمعروف أن أول دخولٍ للمسلمين إلى المسجد الأقصى حدث في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد تحرير القدس وأراضي فلسطين والشام. ولم يُجمَّع اليهود مرة أخرى بعد تجمعهم الأول الذي كان في المدينة إلا في الوقت الحاضر. وعلى ذلك فإن الحشر الثاني أو كما ورد في سورة الإسراء ﴿وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ سيكون حتماً في فلسطين والقدس؛ وإن انتصار المسلمين على اليهود ودخول جيوشهم الموحدة القدس مرة أخرى مرهون بعودة حقيقية لجوهر العقيدة الإسلامية ولمنهج الجهاد القرآني، وهذه أصبحت حقيقة مجربة على مدار التاريخ الإسلامي.

فلن يتم النصر ودخول الأقصى إلا بعودة الأمة إلى جوهر عقيدتها ووحدتها وتضامنها في درب الجهاد.

وفي أحاديث رسول الله ﷺ إشارات لما سيؤول إليه الأمر من صراع المسلمين مع اليهود.

فقال أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن طلحة، عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «منزل الدجال في هذه السبخة، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى زوجته وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه، فيسلط الله المسلمين عليه فيقتلونه ويقتلون شيعته، حتى إن اليهودي ليختبئ تحت الشجرة والحجر فيقول الحجر والشجر للمسلمين هذا يهودي تحتي فاقتله».

وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله».

أما المسجد الأقصى في السنة النبوية الشريفة فقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك. وجميعها يوضح فضل هذا المسجد ومكانته عند المسلمين وصلته بعقيدة التوحيد.

- روى الإمام أحمد عن ذي الأصابع قال: (قلت يا رسول الله إن ابتُلينا بعدك بالبقاء أين تأمرنا قال: عليك ببيت المقدس، فلعله أن ينشا لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون) (4/ 67).

- وعن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: (يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال: أرض المنشر والمحشر ائتوه فصلوا فيه فإنّ صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه قالت: أرأيت من لم يُطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: فليهد إليه زيتاً يسرج فيه فإن من أهدى له كان كمن صلى فيه) رواه أحمد 6/ 463، وابن ماجة 1/ 429.

ـ وقال ﷺ: «من أهَلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله ما تقدم من ذنبه، أو وجبت له الجنة». رواه أبو داود في سننه.

وفي سنن ابن ماجه «مَنْ أهَلّ بعمرة من بيت المقدس كانت كفارة لما قبلها من ذنوب».

«ـ وعن جابر أن رجلاً قال يا رسول الله، أي الخلق أول دخولاً إلى الجنة قال: الأنبياء قال ثم من قال: الشهداء، قال: ثم من، قال: مؤذنو المسجد الحرام، قال: ثم من، قال: مؤذنو بيت المقدس، قال: ثم من، قال: مؤذنو مسجدي هذا، قال: ثم من، قال سائر المؤذنين على قدر أعمالهم».

ـ وروى البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء رفعه (الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة) قال البزار، إسناده حسن.

«ـ قال ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى».

وفي رواية أخرى: «المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي». وقد رُوي الحديث عن ست عشرة طريقة. ورواه ستة من أصحاب رسول الله ﷺ.

ـ وقد صح الحديث النبوي أن النبي ﷺ عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى صلى بالأنبياء جميعاً.

وأشهر ما قيل في ذلك ما نقله السيوطي في الآية الكبرى. وقال ابن أبي حاتم في تفسيره وهو حديث طويل اقتطف منه ما فيه زيادة عن غيره (عن أنس بن مالك قال: ولما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل حمله جبريل عليها. . فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يُقال له باب محمد (في حائط البراق) أتى إلى الحجر الذي ثَمة فغمزه جبريل بإصبعه فنقبه ثم ربطها ثم صعد فلما استويا في صرحة المسجد. . ثم

انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير. ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة قال فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم فلما انصرفت قال جبريل يا محمد أتدري من صلى خلفك قال: لا. قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله).

وروى البيهقي في دلائل النبوة 2/ 143 ـ 149 والطبري في تفسيره حديثاً طويلاً وجاء فيه: «أتى بيت المقدس فربط فرسه إلى صخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قُضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك. ؟ قال هذا محمد رسول الله خاتم النبيين قالوا: وقد أرسل إليه، قال نعم قالوا حيّاه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء».

وقد علق المفسرون والعلماء على الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس، فقال السيوطي: في الآية الكبرى ص 115 تكلم الناس في الحكمة من الإسراء بالنبي إلى بيت المقدس قبل المعراج، فقيل ليجمع تلك الليلة بين القبلتين.

وقيل لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله فحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أشتات الفضائل.

وقال سيد قطب في ظلال القرآن 15/ 12 (والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعاً).

ما العلاقة بين النبي داود عليه السلام وبني إسرائيل والقدس؟

لعل شخصية النبي داود عليه السلام، من أكثر الشخصيات النبوية بروزاً في الإرث اليهودي والمسيحي والإسلامي، وقد أثيرت حول هذه الشخصية تساؤلات

عديدة وإشكالات وقف الدارسون دونها مواقف متباينة متناقضة، قد تصل أحياناً إلى حد وجود شخصيتين لا تتفق الواحدة منهما مع الأخرى. ففي التوراة المدوّنة يجري الحديث عن النبي داود في أكثر من سفر وتنسب له عشرات المزامير.

وهو في التراث اليهودي الملك الذي وحد بين قبائل بني إسرائيل وأسس مملكة دامت حوالي أربعين سنة، حسب ما نصت عليه التوراة المدونة أيام السبي البابلي، وقد أتى القرآن الكريم على ذكر النبي داود في ستة عشر موضعاً، يستطيع الدارس فيها معرفة أبعاد شخصيته الحقيقية في إطار من عقيدة التوحيد والنبوة عبر الزمان المفتوح والأبعاد العقيدية الواسعة.

وحين ندرس النصوص التوراتية والمزامير التي نسبت إلى داود نرى أن هذه الشخصية أحيطت بعالم غريب متناقض. وعلى الرغم من كل التناقضات التوراتية يتناول اليهود شخصية داود عليه السلام على أنه رمز أساسي من رموز الملكية والدولة التي عاصمتها القدس. على ذلك أيضاً يرون فيه رمزاً لرأس التجمع اليهودي قديماً، وعلى خطاه فإن دولة الكيان الصهيوني تربط قيامها بالتراث الداودي الذي يعيد حسب رؤيتهم صياغة قيام هذا الكيان وجعل القدس عاصمة أبدية له.

ومن ناحية أخرى فإن الهدف السياسي يختلط بالهدف الديني، فيصبح داود رأس الهرم اليهودي باعتباره حقق لبني إسرائيل كياناً سياسياً دينياً لم يألفوه من قبل، لا في زمن موسى عليه السلام، ولا غيره من القضاة وأشباه الملوك من بني إسرائيل. وإذا نظرنا اليوم إلى الدراسات التي تناولت التراث اليهودي وجدنا أنها تتناول شخصية النبي داود لتصل بالنتيجة إلى استنتاجات مختلفة.

فالمستشرقون المنحازون لليهود، وكذلك دارسو ما يسمى العهد القديم، يرون في داود ملكاً مهماً لليهود تمتع بالحكمة والملك، وبنى دولة لأول مرة في تاريخ بني إسرائيل بينما يرى بعض الدارسين أن داود ما هو إلا مرتزق استطاع من خلال أسلوب

الاغتيالات والخداع أن يصل إلى ما يسمى بناء دولة يهودية. ويستندون على بعض ما أوردته التوراة، فيصفونه بأوصاف سيئة، ويتهمونه بأعمال منافية لكل الأخلاق والتعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام. على أية حال فإن اليهود اليوم على شتى انتماءاتهم الدينية والعلمانية يرون في داود اليهودي الأول والملك المعظم الذي غير مجرى تاريخ قبائل بني إسرائيل السياسي والديني. ولذلك فهم يتخذون من النجمة السداسية شعاراً لهم على اعتبار أنها نجمة داود، ويسمون كثيراً من مؤسساتهم وأماكنهم باسم داود ومملكة داود، كالفنادق وبعض المؤسسات الطبية وكذلك الشوارع والساحات العامة وما إلى ذلك.

وحتى تظهر الحقيقة ويصفّى النقاء من الغش كان لابد لنا من تسليط الضوء على شخصية النبي داود عليه السلام؛ لنعرف من هو ومدى علاقته باليهودية.

فهل حقاً ينتسب داود إلى اليهودية؟

هل هو ملك فحسب أم هو نبي موحد قبل أي اعتبار آخر؟

من أحق بداود، المسلمون الموحدون أم اليهود؟

ما هو ملك داود وأين مملكته وما معنى الملك والحكمة.

هذه الأسئلة نطرحها ليجيب عنها ما يسمى العهد القديم، ويجيب عنها القرآن الكريم.

1 ـ نسب داود، ماذا يعني حسب النص التوراتي، وماذا يعني حسب النص القرآني؟

تورد التوراة سفراً يسمى راعوث وهو السفر الثامن حسب ترتيب هذا الكتاب. وفي هذا السفر قصة عن راعوث المرأة المؤابية التي تزوجت من بوعز، وهو جد النبي داود، وأنجب منها بوعز عويد، وعويد ولد يسَّى، ويسّى ولد داود. وعلى هذا الأساس فإن نسب داود من حيث جدته ليس من بني إسرائيل بل من بني مؤاب. وهناك قانون يقول إن نسب اليهودي يتم عندما تكون أمه يهودية، وليس شرطاً أن يكون أبوه يهودياً. وعلى هذا الأساس فإن داود لا ينتسب هو وجده وأبوه إلى اليهود، لأن القانون اليهودي

لا يجيز يهودية أحد إذا كان أصل أمه غير يهودي، ويبقى كذلك حتى الجيل العاشر. وهذا يعني أيضاً أن سليمان عليه السلام لا ينتسب إلى اليهودية مطلقاً. أما نسب داود حسب القرآن الكريم فإنه نسب نبوة لا نسب أم أو أب. فهو حسب النص القرآني من آل إبراهيم أي من بيت النبوة الذي اصطفاه الله ليكون منه الأنبياء والملوك.

يقول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الأنعام 84 ـ 85. فالآية توضح سلسلة النبوة التي بدأها إبراهيم عليه السلام ولا يعنينا في هذا المقياس سلسلة النسب الأبوي أو الأمومي. فقد لا يكون والد داود أو إلياس أو أيوب نبياً لكن الله سبحانه جعل سلسلة النسب مترابطة بحيث يخرج منها الأنبياء كما خرج داود وسليمان عليهما السلام.

2 ـ عقيدة داود ونبوته: تركز نصوص التوراة على أن داود ملك وليس نبياً، وقد ورد في التوراة أن أنبياء وجدوا في زمن داود، بل عايشوه، وكانت له بهم علاقات، وكان أكثرهم التصاقاً بداود النبي المدعو ناثان.

وبما أنه ملك فقد نسبوا إليه كثيراً من الأعمال المشينة، ولو كان داود نبياً في عرفهم لحاولوا أن يمنحوه صفات أخرى.

ففي التوراة أن داود غدر بالمدعو أوريا الحثي وهو جندي من جنوده حينما بعثه إلى حرب مع بني عمون ليقتله ويستولي على امرأته التي رآها داود تستحم عارية على سطح بيتها. ويُقْتل أوريا ويتزوج داود من (بتشبع) امرأته. فما تذكره التوراة هنا ليس من صفات الأنبياء.

ويأتي في التوراة أيضاً أن داود حاصر إحدى مدن بني عمون ثم أخرج شعبها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد فأمرّهم في أتون آجر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون. فأخلاق النبوة تردع النبي داود من أن يجمع شعب قرية ويقطع رؤوسهم ثم يضعهم في أفران ويحرقهم.

أما نبوة داود في القرآن الكريم فلها صفات مختلفة تماماً. فالقرآن الكريم يشير إلى نبوة داود قبل الملك، وهذا منطقي إذ إن النبوة أسبق على الملك ما دامت أن غاية الله سبحانه في بعث أنبيائه هداية البشر أولاً ثم الحكم لهم ثانياً.

فداود موحى إليه مثل بقية الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وقد ورد ذلك في سورة النساء الآية 165 يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

وعلامات نبوة داود عليه السلام، لم تذكرها التوراة، بل ذكرها القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سبأ 10 ـ 11.

ويقول تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ سورة ص 17 ـ 20.

فعندما يخاطب الله سبحانه رسوله محمداً ﷺ يقول له: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فقد ضرب الله للنبي مثلاً داود عليه السلام لأنه تعرض أيضاً للكثير من الأذى القولي والفعلي على أيدي بني إسرائيل. لكن الله أيده ونصره عليهم وسخر له الجبال والطير وشدد ملكه وآتاه الحكمة وفصاحة اللسان.

ومن صفاته النبوية أيضاً استغفاره الله والخضوع له: يقول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ص 24 ـ 25، ولو كان داود ملكاً فحسب لما سخّر له هذه الأمور، فالنبوّة إلى جانب الملك هي ما أهّلت داود كي يكون كذلك، لقد اقتضت حكمة الله أن يكون داود نبياً وملكاً وقاضياً وحكيماً وفصيح اللسان. فالنبي له صفات وكذلك الملك، والملك يحتاج إلى القوة والمنعة، فلذلك سخّر له الحديد، ليصنع منه الدروع والسلاح، وشدد

ملكه بمؤهلات مادية واضحة، حسبما جاء في القرآن الكريم، والنبوّة ـ كما قلنا ـ تحتاج إلى مؤهلات أيضاً فلذلك سخر له الجبال يسبحن معه رب العالمين، وكذلك الطير. والقضاء يحتاج إلى حكمة وتمييز فلذلك منحه الله سبحانه حكماً وعلماً.

يقول تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ الأنبياء 78.

وهنا لابد أن نتوقف ملياً حتى ندرك الأسباب التي من أجلها منح الله داود هذه الصفات مجتمعة. يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة 44.

فهذا البيان الإلهي يحدد لنا أن الأنبياء الذين بعثهم الله ليطبقوا ما جاء في التوراة الحقيقية هم مسلمون أسلموا لله قلوبهم وعقولهم. وواضح أنهم كانوا يحكمون بالتوراة على من هادوا، أي الذين هم من اليهود أو من الذين ارتجعوا عن كفرهم وهداهم الله إلى الدين الحق. وداود الذي حكم بالتوراة كما نزلت على موسى بعث إلى بني إسرائيل ليحكم لهم من خلالها. لكن حكم بني إسرائيل لا يأتي بالسهل الهين. فهم الذين آذوا موسى عليه السلام، وقتلوا الأنبياء وأفسدوا في الأرض. ونوعية كهذه من البشر لا تُحْكَم بالنبوة فحسب بل بالنبوة والقوة. فلذلك منح الله سبحانه داود النبوة والحكمة والفصاحة والقضاء حتى يستطيع أن يحكم بني إسرائيل. ولولا تأييد الله له بكل تلك المؤهلات لما استطاع أن يحكمهم، لأن طبعهم جُبِل على الكفر والقتل والفساد، ولذلك نستخلص أن داود بنبوته رسول مسلم بعثه الله ليحكم قوماً من أشد الأقوام قسوة وغلظة وعناداً وكفراً، ولذلك احتاجت نبوته إلى ملك وقوة مادية. وعلى الرغم من كل ذلك فإن داود عليه السلام لاقى منهم الكثير الذي يعجز عنه الوصف، فلعن الذين كفروا منهم لأنهم لا يتناهون عن منكر

وقتل وفساد. يقول تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ المائدة 78.

إذاً لماذا لعن داود الذين كفروا من بني إسرائيل؟ لأنهم عصوه وعصوا حكم الله الذي أنزله في توراة موسى عليه السلام.

وقد اتسعت دائرة دعوة داود عليه السلام ومنحه الله أن يكون قاضياً بالعدل بين الناس جميعاً وأن يجعله الله خليفة يحكم بين الناس بالحق وليس بالهوى يقول تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ ص 26.

فنبوته كانت في بني إسرائيل، وخلافته كانت في الأرض، وقضاؤه كان بين الناس جميعاً. لقد خاطب الله سبحانه ملائكته قائلاً: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾. وكان المقصود بذلك آدم عليه السلام ونسله. والخلافة لا تُمْنح جزافاً، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يرتبط بعمل هذه الخلافة، وهذا العمل هو الحكم بين الناس جميعاً بالحق. فداود عليه السلام مكلف من الله سبحانه بالخلافة والحكم بين الناس بالعدل، وهذا ما لا يروق لبني إسرائيل، لأنهم يريدون كما وصفهم القرآن الكريم، أن يكونوا متميزين عن الناس وأن يكون الحق لهم ومعهم دائماً.

وقد وصفهم الله سبحانه بذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ آل عمران 75. وحين نعود إلى ما ذكرته التوراة عن صفات داود نرى أنها ركزت على حروب داود الكثيرة واتساع ملكه حتى وصل خليج العقبة، ودانت له البلاد التي حولها، فافتتح بلاد الفلسطينيين على قول التوراة، وأخذ دمشق عاصمة الآراميين بعد حرب شديدة، وحارب الأقوام التي على الفرات وانتصر عليهم. لكن التوراة نفسها تذكر أموراً تتناقض كلياً مع طبيعة النبوة التي كان عليها داود. فقد ذكرت كما قلنا سابقاً، أن داود رأى امرأة تستحم على سطح بيتها فجلبها وزنى وأنجب ولد حرام، وبعث بزوجها المدعو أوريا الحثي ليُقْتَل في الحرب. وقتل

الرجل فجلبها داود إلى مجموع نسائه ثم ضاجعها فولدت له سليمان بعد أن مات الطفل الأول.

فهذا المنطق التوراتي لا يتوافق مطلقاً مع النبوة. والأنبياء معصومون والعصمة إلهية فكيف بداود يرتكب فاحشتين كبيرتين هما الزنا والقتل بغير حق؟ إن هذا الخبر لم يرد في القرآن الكريم، لأنه تلفيق من خيال من كتبوا التوراة بعد داود بمئات السنين، وحسب التوراة فإن داود استخدم أخس الأساليب ليقتل أوريا الحثي. تورد التوراة أن نبياً يدعى (ناثان) جاء وقَرَّع داود بفعله فكيف يصح أن يقرِّع ناثانُ داودَ وكيف يمكن أن يكون ناثان نبياً أرفع شأناً من داود والتوراة نفسها لا تعطي أي وزن لناثان إلا في هذه الحادثة؟

وتخفي التوراة دور الملائكة الذين جاؤوا إلى داود ليحكّموه في أمر النعاج، وقد أورد القرآن الكريم القصة بوضوح. فليس هناك وجود لنبي اسمه ناثان بل هناك وجود ملكين على ما صح من أحاديث رسول الله ﷺ. والملكان دخلا على داود بهيئة رجلين وقد فزع داود منهما وكان يتعبد في محرابه. وقد أجمع المفسرون وكذلك الدارسون لمنطق الحدث، أن فزع داود جاء بسبب أن المحراب مسور، فكيف جاء الرجلان ودخلا فجأة واجتازا الحراس والأبواب على اعتبار أن داود ملك؟

ويعلق البيضاوي على ذلك بقوله: وأقصى ما في هذه القصة الإشعار بأن داود عليه السلام ود أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله، فنبهه الله سبحانه بهذه القصة، فاستغفر وأناب، ومما روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان، وما قيل إنه أرسل أوريا الحثي مراراً إلى الحرب وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء، ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين. مئة حد القذف وستون زيادة لأن المقذوف نبي. وبعيد من الحكمة أن يكون الحكيم فاسقاً قاتلاً من

غير حق ولا برهان، وداود نبيٌّ معصوم لا يمكن أن يقع بمثل هذه المغريات وقد شهدت له التوراة نفسها بصدقه وخوفه من الله وطهارته.

وعلى ذلك فأين داود من بني إسرائيل وأين نبوته الكريمة مما قاله اليهود فيه؟ إن داود النبي المعصوم المسلم لا يصح أن يكون على دين هؤلاء الملفقين القاذفين من اليهود.

أما إذا عدنا إلى الحديث عن ملك داود، فإننا لا نرى في القرآن الكريم سوى أن الله سبحانه آتاه الملك دون أن نعرف أين ملكه، وفي أي أرض كان. وقد من الله عليه بالحكمة والقضاء وتسبيح الجبال والطير معه لكثرة ما كان يسبح الله. وقد وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ص الآية 17. فهو المؤيد من الله سبحانه وكان أوّاباً متبتلاً.

وإذا ناقشنا مُلك داود وحلَّلنا وقائع التوراة فإننا سنجد كثيراً مما يفاجئنا.

فلو نظرنا إلى التسرب اليهودي إلى فلسطين لوجدنا أن أكثر تجمعاتهم وجدت في منطقة الخليل، وفي الشمال الشرقي من فلسطين، وبقي سكان الساحل في مناطقهم الفلسطينية. وإذا ناقشنا قول التوراة الذي يورد أن داود عليه السلام حكم في الخليل سبع سنين فكان يمكن له أن يبقى في الخليل أو أن يصنع مدينة تكون له عاصمة ملكه في الشمال لكنه ترك الخليل، ولم يذهب إلى الشمال أيضاً واختار جبل الزيتون أو جبل صهيون المطل على مدينة القدس، ليبني له قصراً كما تقول التوراة.

والواقع لو حلَّلنا أقوال التوراة نرى أن داود عليه السلام لم يكن من عائلة قوية حتى ينافس غيره على الملك. وقد كان معه حسب قول التوراة أربعمائة رجل ثم ستمائة، وأخضع يهودا لملكه، ثم حارب قبائل إسرائيل زمناً طويلاً حيث أخذ الملك من ابن شاؤل (طالوت) ودان له بنو إسرائيل. وفي المحصلة فإن قبائل يهودا وقبائل إسرائيل كانوا على عداء سابق مع داود، وداود لن يأمن غدرهم وشرهم فاختار منطقة بعيدة عن هؤلاء وهؤلاء، أي إنه اختار جوار القدس، وفضل مجاورة اليبوسيين على مجاورة يهودا وإسرائيل، وهذا ما يلفت النظر إلى أن عقيدة داود لم

تكن كعقيدة اليهود. فقد استطاع إخضاعهم لملكه وعقيدته، وقد ساعده في ذلك أناس لم يكونوا من بني إسرائيل كأوريا الحثي وبعض الأدوميين وبعض اليبوسيين، ولم يكن على عداء مع اليبوسيين. وقد منحه الله الخلافة في الأرض ليحكم بين الناس بالعدل فقال تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ص 26.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ المائدة 44.

فداود الخليفة العادل المسلم يحكم بقضائه للذين كانوا يهوداً وللناس جميعاً، وداود يدرك أن هؤلاء اليهود لن يحكمهم ملك أو نبي من أبناء عقيدتهم، لأنه سيضل كما يضلون. والتوراة أكبر شاهد على ذلك. لقد حكم بني إسرائيل في عهد القضاة عشراتٌ منهم، لكنهم فسدوا وعملوا الشرّ في عين الرب. وكذلك لو نظرنا إلى العهد الذي جاء بعد سليمان لوجدنا أن ملوكهم أقاموا عقائد الوثنية وأحلوا الحرام، ولم يتمكن سوى داود وسليمان من حكمهم حسب العقيدة الصحيحة، لأنهما كانا مسلمين على ملة إبراهيم وموسى ولم يكونا يهوديين.

وعلى الرغم من هذا وذاك فإن علم الآثار والمكتشفات يرى أنه لا توجد مخلفات كثيرة خارج القدس تعود إلى عهد داود؛ لأنه في الحقيقة لم يشتهر بتشييد الأبنية. والواقع أن داود كان مشغولاً بأهم من البناء والتشييد، فهو مشغول بالدفاع عن عقيدة التوحيد والقضاء بين الناس حسب الشريعة التوحيدية الحقة. ولعل القرآن بعدم إشارته إلى جغرافية ملك داود دليل واضح على أن الملك لدى داود كان ملكاً يستند إلى قوى العقيدة التوحيدية ونشرها. وليس إلى قوة التشييد والبناء الحضاري المادي. ولعل علماء الآثار الذين لم يكتشفوا آثاراً تدل على عصر داود لا يدركون أن ملك الأنبياء ليس بشرط فيه إقامة البنيان

والحضارة المادية بقدر ما هو بنشر الدين التوحيدي ومحاربة المعتدين والفاسدين والذين ينقلبون بين يوم وليلة من عقيدة إلى أخرى.

وحين يحكم داود بالعدل بين الناس كافة فإن ذلك يعني أن عصره عصر قضاء وقانون. عصر يحتاج للقضاء والقانون، وهذا إن دل فإنه يدل على أن اليهود في ذاك العصر قد كثر فيه الظلم والاعتداء حتى بلغ أشده، وإلا لما منح الله داود الحكمة والقضاء، ودعمه بالتأييد الإلهي حتى يستطيع أن يحل المشكلات الاجتماعية التي انتشرت آثارها المدمرة بين بني إسرائيل. لقد احتاج عصره إلى قوة القانون والقضاء حتى يستطيع مجابهة الظلم والاعتداء بشتى أشكاله. ولعله من قبيل المنطق أن نقول: إن مجتمعاً يعيش بسلام وعدل وأمن لا يحتاج إلى كثير من القوانين والقضاة. وهذا يعيد إلى الأذهان أن خشونة بني إسرائيل ومكرهم واعتداءاتهم بعضهم على بعض من جهة وعلى غيرهم من الناس من جهة أخرى بلغ حداً لا يطاق، مما يستدعي وجود القوة النبوية الملكية التي تتمتع بفهم القانون وفهم الحكم بالعدل بين الناس، ولولا كون داود نبياً وملكاً عادلاً لكان كأي من بني البشر أو كأي من بني إسرائيل، لكن الله اصطفاه نبياً مسلماً يحكم بالحق والعدل. اختاره ليكون اليد القوية والعقل الناضج المليء بالحكمة، حتى يحكم هؤلاء اليهود ويخضعهم بالقوة لسلطان الحق والعدل. وبعد هذا كله تستوقفنا أمور تثير كثيراً من الإشكالات ويحلها القرآن الكريم دون سواه.

1 ـ لنرى كلمة داود ـ وكذلك سليمان. لماذا لا نجد في التوراة هذين الاسمين قبل عصر داود وسليمان؟ فمنذ السفر الأول في التوراة حتى سفر الملوك لا نعثر على اسم داود ولا اسم سليمان فيها. ثم لو نظرنا إلى أسماء المعاصرين لهما من أبناء إسرائيل لرأيناها أسماءً عبرانية. فداود اسم غير مألوف بين أسماء بني إسرائيل، فنحن نرى أن أسماء إخوته كما وردت في التوراة هي أسماء عبرانية، فالأول اسمه ألباب والثاني آبيناداب والثالث شمه. بينما اسم داود لا يمت بصلة إلى هذا اللسان، إن ذلك يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ولعل الاسم أقرب إلى

اللسان البابلي أو الآشوري (دا ـ أود) ولنقارن اسمه باسم شاؤل، وصموئيل أفرايم، أبنير يوناثان، أبشالوم، إمنون إلى آخر ما هنالك من أسماء لنرى الاختلاف.

2 ـ لقد مر في التوراة النص التالي (وأخرج داود الشعب الذي فيها ووضعهم تحت المناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد فأمرَّهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون) ولعمري ألا يذكّر هذا القول بما يزعمه اليهود اليوم عن محرقة أجراها هتلر عندما وضعهم في أفران الغاز؟ ويبدو أن كاتب التوراة لفق هذه المسألة على داود لينضح من جوفه الحقد الدموي على الشعوب، وداود بريء من ذلك كله. لقد ظلت صورة المحرقة في أفران الآجر ملتصقة باللاشعور اليهودي حتى أظهروها عندما اتهموا هتلر بإحراقهم بأفران الغاز إبان الحرب العالمية الثانية. والواقع أن ما أوردته التوراة عن حرق الناس في أفران الآجر ما هو إلا صورة نازية قديمة أو صورة يهودية حاقدة منذ زمن بعيد. من خلال ما تقدم نرى أن داود بأخلاقه وسلوكه النبوي يتنافى مع أخلاق اليهود وسلوكهم وهو أيضاً ملك أيده الله ومنحه العلم والحكم والقضاء وأيده ليتمكن من حكم هؤلاء القساة القاتلين الغادرين الفاسدين.

وما لفقته التوراة عنه من أنه زنى وقتل ووضع الناس في أفران الآجر ما هو إلا حقد راسخ لدى اليهود على داود عليه السلام. فهم يريدون تشويه صورته وسلوكه وإخراجه من دائرة النبوة والعدل والعفة والطهارة. وإذا تساءلنا لماذا؟ نقول لأن داود حكم بالعدل بين الناس وهم لا يريدون ذلك، ولأن داود حماه الله من مؤامراتهم فلم يستطيعوا اغتياله وقتله كما فعلوا مع غيره من الأنبياء.

وداود بالمحصلة نبي من أنبياء الله مثله مثل سائر الأنبياء الموحدين وهو نبي بأخلاقه وخلافته وعدله وقضائه وقوته، مسلم أسلم قلبه لله، ونحن المسلمين أولى بداود من هؤلاء اليهود الذين لعنهم داود ولعنهم اللاعنون.

أين العلاقة بين الهيكل المزعوم والنبي سليمان عليه السلام

سليمان عليه السلام بين الحقيقة القرآنية والتحريف اليهودي:

النبي سليمان عليه السلام، أكثر الأنبياء عرضة للاستغلال من قبل اليهود، فعليه بنوا أساطير تبدأ ولا تنتهي، وعليه صنعوا أوهاماً سياسية ليس لها حدود. وجعلوه فيما مضى مؤسس هيكلهم المزعوم كرمز لدولة يهودية قائمة على أرض فلسطين، وابتدعوا بينهم وبينه صلة سياسية ظلت تخدع جمهورهم ومَنْ وَالاهم إلى وقتنا الحاضر.

فإذا كانت الحركة الصهيونية الاستعمارية قد انخرطت في المشروع الاستعماري الغربي، فإن استغلال الجانب الأسطوري الديني بلغ ذروته حين ربطت هذه الحركة بين تطلعاتها الاستعمارية وبين ما قيل عن سليمان ومملكته اليهودية الغابرة. ويدخل في ذلك ما قيل عن هيكل نسبوه إلى سليمان ويريدون اليوم اقتلاع المسجد الأقصى وتدميره وبناء ذلك الهيكل مكانه، حتى تكتمل دائرة نظرتهم ورؤيتهم حول الأرض المباركة ـ فلسطين ـ ومن ثم إقناع العالم بأنهم استعادوا مملكتهم الغابرة، وشيدوا الدولة اليهودية القديمة الجديدة، استناداً إلى حق ديني وتاريخي وجغرافي ابتدعته التوراة التي كتبها حاخاماتهم في أيام الانكسار والذل والتشرذم، التي عاشها اليهود في بابل تحت السيادة البابلية.

إذاً، ما العلاقة الحقيقية بين اليهود والنبي سليمان عليه السلام؟ وهل حقاً بنى هذا النبي هيكلاً يرمز إلى وحدة العقيدة اليهودية وكذلك الكيان اليهودي السياسي؟ وهل حقاً كان سليمان يمثل اليهودية في عصره والعصور اللاحقة حتى زمنا المعاصر؟ كيف تناولت التوراة شخصية النبي سليمان وكيف جاء النص القرآني موضحاً الحقيقة التي طمسها التوراتيون ولفقوا باطلاً بدلاً عنها؟

اختار النبي داود ابنه سليمان ليرث الملك، ولم يقع اختياره على غيره على الرغم من أن أبناءه كثيرون ممّن كانت أمهم يهودية من بني إسرائيل. والواقع فإن عدم اختيار داود غير سليمان وريثاً لملكه كما تذكره التوراة، يوحي بأن داود لربما لم يكن يثق بمن كانت أمه إسرائيلية أو وثنية، وذلك ربما بسبب تجربته المرة مع بني إسرائيل المتقلبين بين

لحظة وأخرى من عقيدة إلى عقيدة ما دفع والده النبي داود عليه السلام إلى لعن كثير منهم ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ المائدة 78، ويظهر أن أكثرية بني إسرائيل هم ممن كان يعصي ويعتدي ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرًاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ سبأ 10.

وعند الحديث عن سليمان نرى التوراة وهي تورد سيرتين له. ففي البداية تقول: (وأحب سليمان الرب سائراً في فرائض داود أبيه) وتقول على لسان الرب: (هوذا قد فعلت حسب كلامك هوذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك). وتتحدث التوراة بشكل مفصل عن حكمة داود وسليمان تلك التي انتشرت سمعتها بين الناس.

ثم تنقلب التوراة على سليمان فتقول: (وأحب الملك سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب).

وتكرس التوراة الحديث عن بناء سليمان ما يسمى الهيكل منذ الإصحاح الخامس من الملوك الأول، حتى نهاية الإصحاح السابع. وفي الإصحاح الثامن يدخل سليمان تابوت الرب إلى الهيكل فتقول: (فأدخل الكهنة تابوت الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس).

وإذا عدنا إلى نصوص القرآن الكريم وجدنا أن سليمان ذكر فيها في سبعة عشر موضعاً كذكرها لداود في ستة عشر موضعاً.

وإذا تتبعنا سيرته كما وردت في القرآن الكريم نرى ما يلي:

يقول تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ سورة ص آية 30.

,يقـول تعـالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ ﴾ سورة الأنبياء 78 ـ 79 .

ويقـول تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ سورة النمل 15 ـ 16 .

ويقـول تعـالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ سورة ص ، 31 ـ 39 .

ويقول تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾ سورة سبأ ، 12 ـ 13 .

وقـال تعـالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ سورة النمل 17 .

وقـال تعـالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ سورة النمل ، 18 ـ 19 .

ويقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ سورة سبأ، 14.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة سليمان وطائر الهدهد ومملكة سبأ في سورة النمل من الآية 20 حتى الآية 44.

فتبدأ سيرة النبي سليمان بقوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾. فهنا نرى اختياراً ربانياً يتدخل ليصطفي سليمان وريثاً لأبيه النبي داود، يأخذ بتعاليم الكتاب الحقيقية التي ورثها عن أبيه وتلقاها مباشرة منه.

إن القرآن الكريم لم يأت على ذكر أبناء داود الآخرين ففي هذا أهداف القرآن الكريم وغاياته، ليست المسألة مسألة تسجيل التاريخ والأنساب، بل المسألة في كليتها تسير ضمن دائرة التوحيد ودين الله الذي أقامه الأنبياء الموحدون ودافعوا عنه. ولذلك فكما وهب الله لإبراهيم إسماعيل وإسحاق وهب لداود سليمان ليقيم ما سار عليه أبوه داود عليه السلام.

وقد منح الله داود النبوة والملك والقضاء وجعله خليفة يحكم بين الناس بالعدل ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ سورة ص 26. وهذه السمات ورثها سليمان، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ فإذا كانت هذه صفات سليمان فكيف يكون سليمان منحرفاً عن عقيدة التوحيد وسائراً وراء آلهة وثنية متعددة ومتنوعة حسب زعم التوراة؟

إن المدقق في التوراة يرى أنها لا تطلق على سليمان صفة النبي، بل تطلق عليه صفة الملك تارة، وصفة الحكيم تارة أخرى. ولكن سليمان الذي حمل صفة النبوة وصفة الملك والحكمة لا يمكن له أن ينحاز عن طريق الله. فالنبوة خاصية لا يتمتع بها بقية البشر، إنها تقع في دائرة الاختيار الرباني ودائرة الصون والحفظ والعصمة.

والواقع أن سليمان لازم أباه داود ليتعلم منه القضاء ولأنه مؤمن بربه، ونبي لله منحه الله قوة التفوق القضائي على أبيه فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ حيث أورد قصة غنم القوم التي نفشت في الحرث، ووهب الله لداود وسليمان علماً خاصاً فشكرا الله على نعمته. وهنا لابد أن نتوقف أمام أسئلة كثيرة:

- لماذا ذكر القرآن الكريم المحاريب ولم يذكر ما يسمى الهيكل؟
- لماذا تذكر التوراة أن سليمان تزوج ألف امرأة ولم يرد ذلك في القرآن الكريم؟
- لماذا تذكر التوراة أن سليمان بنى لنسائه معابد وثنية لعبادتهن ولم يذكر القرآن الكريم ذلك؟

لقد ورد اسم المحراب في قصة النبي داود، وقد عرفنا من خلال آيات القرآن الكريم أن داود كان يتعبد في هذا المحراب، كما ورد المحراب معرفاً مع زكريا ومع مريم مما يشير إلى وجود مكان للعبادة معروف للجميع، لكن اللافت أنه لم يرد في القرآن ذكر لسليمان عليه السلام وعلاقته بهذا المحراب، أو أن له اهتماماً خاصاً به، بل على العكس من ذلك نرى القرآن يذكر أن الجن تبني لسليمان عليه السلام محاريب متعددة وليس محراباً واحداً مميزاً ومحدداً، ولتكون هذه المحاريب أمكنة يتعبد بها لله ورمزاً لعقيدة التوحيد والقضاء العادل، وليس كما أوردت التوراة، أنه بنى لنسائه معابد وثنية في كل معبد صنم يرمز لعقائد النساء الوثنية المتعددة.

فما أورده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ سورة سبأ، 12 - 13 ينفي تماماً ما أوردته التوراة من بناء ما يسمى هيكل سليمان، ولو قرأنا بإمعان سيرة النبي سليمان لوجدنا أن هذا النبي سخر كل مظاهر الماديات لنشر عقيدة التوحيد، وأمده الله بعناصر القوة الروحية والمادية كي يرسخ في الأرض تلك العقيدة التوحيدية.

وهذا ما يقودنا إلى النظر في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ سورة النمل 35 ـ 36.

ويقول تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ سورة النمل 38.

ويقول تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ سورة النمل 44.

فملكة سبأ حاولت اختبار النبي سليمان على عادة الملوك، فبعثت له بهدايا، عله يقتنع ويكف عنها وعن قومها. لكن غاية سليمان لم تكن مادية، فهو يريد أن ينشر عقيدة التوحيد. فقال: (فما آتاني الله خير مما آتاكم) لذلك كانت غايته ترك عبادة الشمس والأصنام والدخول في دين التوحيد. ولما تبينت ملكة سبأ أن غاية سليمان كما ظنت أدركت دعوته، فأسلمت معه وأسلمت وجهها لله رب العالمين.

وعودة إلى آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن ملكة سبأ وعظمة عرشها ترشدنا إلى كثير من القضايا الهامة التي يجب التوقف عندها:

يقول تعالى: ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ النمل 29 ـ 31. فالله الذي منح سليمان النبوة والحكمة علمه طرق الهداية وأساليبها. فقد ابتدأ كتاب دعوته باسم الله الرحمن الرحيم. ثم طلب من ملكة سبأ وقومها أن لا يعلوا أو يعاندوا أو يستكبروا ويعلنوا إسلامهم، ويبطلوا عقائد الوثنية.

وتبين الآيات اللاحقة طرق الحكم التي كانت تتبعها ملكة سبأ في ملكها: ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فملكة سبأ احتارت في أمرها لأن القضية أكبر من الماديات جميعها. وتدل الآيات الكريمة على حكمتها وذكائها

وحدسها، فهي أدركت أن ما حواه كتاب سليمان ليس فيه طمع بملك ولا مال، بل فيه دعوة إلى الله ودينه، ولذلك ندرك أن حيرتها إنما تنم عن شك في سوء عبادتها وانحراف عقيدتها. فهي من هذه اللحظة مالت إلى دين الحق دون أن تفصح عنه وتعلنه وأرادت أن تلقي مسؤولية القبول أو الرفض على عاتق الجميع.

وقد ظن قومها أنهم قادرون على صد سليمان. ففي مقياسهم المادي هم أصحب قوة وبأس شديد ومنعة. لكنها وبحسها الذكي أدركت أن من يوجه مثل ذلك الكتاب لن يُغلب، لأنه يستمد قوته من الله الرحمن الرحيم، وليس من كونه يمتلك سلاحاً متفوقاً أو غيره. فهو يدعو إلى الله وليس في غايته احتلال أرض أو إذلال إنسان.

وقد رد سليمان عليه السلام رسل الملكة وأبلغهم تهديده إن لم يرشدوا إلى دين الله، فإذا كانوا أصحاب قوة وبأس فإنه سيأتيهم بجنود لا قبل لهم بها. فجنود سليمان ليسوا من البشر وحدهم، بل هم من الجن والإنس والطير وكل ما سخره الله لسليمان ليكون في خدمة عقيدته.

وبفضل الله واعتماد سليمان على قدرة خالقه جلب كرسي الملكة وأُحضر بين يديه، وجاءت ملكة سبأ لسليمان خاضعة مستسلمة بإرادتها. وأراد أن يثبت لها أن ما منحه الله له أقوى بكثير مما ملكت من قوة، فنكَّر لها كرسي ملكها وأدخلها عليه لتراه. فسألها هل هذا هو عرشك؟ فبهتت وقلبته فقالت كأنه هو. واندهاشها وذهولها جعلاها في شك شديد. وبقدرة الله وعلمه استطاع سليمان فعل المعجزة بنقل عرشها من بلد إلى بلد قبل أن تصل هي نفسها إلى مكان وجود سليمان. ويستوقفنا قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

فما هو الصرح. وأين ذلك مما يزعمه كتبة التوراة عن هيكل سليمان الخيالي؟

فقوله تعالى: ادخلي الصرح يشير إلى بناء مميز صنع من الزجاج الذي يكشف ما تحته من الماء المتموج، وليس ذلك بغريب على النبي سليمان ما دام يحكم الجن

الذين يغوصون في قاع البحر يجلبون الماس واللؤلؤ وكل شيء مبهر. لقد ظنت ملكة سبأ أنها أمام لجة من الماء المتموج، ولكي تتأكد كشفت عن ساقيها خوفاً من أن يصيبها ويصيب ثيابها بلل من هذه اللجة. لكنها لم تصب بماء لأن الصرح الممرد لم يكن لج ماء بل كان صرحاً مصنوعاً من الزجاج الشفاف الكاشف عما تحته، فلما تبينت الحقيقة خرت انبهاراً مما شاهدته، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والذي جعلها تؤمن هو كتاب سليمان الذي يدعوها فيه إلى الإسلام. ثم جَلْبُ عرشِها بقدرة فائقة جبارة، ثم ذلك الصرح الممرد، وإدراكها أن قوة سليمان وعظمته هي منحة من الله.

وهو ما يشير إلى أن هذا الصرح الممرد الذي أذهل ملكة سبأ ليس الهيكل المزعوم، فهذا الصرح وإن كان له علاقة بالبَرّ، إلا أن علاقته الأبرز كانت مع البحر، حيث المياه تتموّج وتندفع تحت الزجاج الشفاف الذي بني على شاطئ البحر. فهو صرح بعيد عن بيت المقدس، حيث يقال إن الهيكل قد بني هناك، بل هو على البحر حيث الجن الذين يغوصون في البحر ويبنون على اليابسة، وحيث منطلق رحلة السفن التي تسير في رحلات منتظمة وفقاً للرياح التي سخرها رب العالمين لسليمان عليه السلام، التي غدوها ورواحها شهر. ويأتي قوله تعالى ليؤكد علاقة قوة سليمان بمنحة الله وفضله ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

إن ملك سليمان الذي نعرفه من خلال سياق آيات القرآن الكريم لم يكن ملكاً مستقراً في مكان مغلق. فهو تارة يمتلك الجياد الصافنات التي تحتاج إلى سهول وصحراء مترامية كي تخدمه في نشر دعوته. وتارة يحكم الريح واتجاهاتها حتى يسافر في البحر ويعود. وتارة يحكم الجن في صنع الصرح الممرد كي يظهر ما منحه الله من قدرات خارقة ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾. وكل ذلك يناقض ما لفقته التوراة وتوهمته عن هيكل سليمان المفترض.

وعلى الرغم من كل ما منحه الله إيّاه يبقى النبي المتواضع الذي يرجع كل نعمة إلى فضل الله ولا ينسى في لحظة هذه النعمة. يقول تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سورة النمل، 18 ـ 19.

فعظمة الملك وقوة الجيش والجنود وتسخير الحيوان والطير والريح لسليمان لم تُنْسِهِ فضل ربه. لقد قال: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إذاً هو منطق النبوة وليس منطق الاستعلاء والنرجسية ونسيان فضل الله.

ولو نظرنا إلى ما قالته التوراة في وصفها سليمان وهيكله المزعوم لوجدنا أن كل ذلك يأتي في دائرة مظاهر الدنيا من مال وزينة ونساء وما إلى ذلك. فحسب زعم التوراة فإن الهيكل الذي بناه سليمان كان كل جزء منه مغشى بالذهب، وكان مستودعاً مالياً ضخماً يجمع فيه المال، حتى إنها قالت إنه عندما غزا البابليون القدس أخذوا من هيكل الرب آنية الذهب وتماثيل الذهب، وكل شيء في هذا الهيكل كان من الذهب.

وإضافة إلى ذلك كله، فإن التوراة حين تتحدث عن ملكة سبأ وعلاقتها بسليمان تركز فقط على الهدايا دون دعوة سليمان لها إلى دين التوحيد. تقول التوراة: (وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة جداً، وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان). «ملوك أول إصحاح 10».

ونرى أن النص القرآني يركز على دعوة سلمان إلى عقيدة التوحيد. والواقع أن ملكة سبأ آمنت برب سليمان، ولم يصل سليمان وجنوده إلى اليمن، ولكن الظاهر أن ملكة سبأ عادت إلى بلادها ولم تقع بين الطرفين حروب أو غزو أو احتلال. فيكفي

النبي سليمان من ملكة سبأ وهي رأس الحكم في بلادها أن تؤمن بالله الواحد وتنبذ عبادة الشمس والأصنام كي يتبعها شعبها فيصير شعباً موحداً. والذي يظهر أنه أنشىء خط بحري منتظم ما بين سبأ وبين مقر سليمان البحري، مداه شهر من الزمن بين الموقعين. وهو ما يوحي به قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾.

فإننا نرى عدة أمور عظيمة سخرها الله له. فالريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض المباركة، وهذه الريح المسخرة غدوها شهر ورواحها شهر. وقد سخر له إذابة المعادن كي يصنع منها ما يشاء. ولو قارنا ما مَنَّ الله عليه بما مَنَّ على أبيه داود لوجدنا أن القوة التي يحتاجها سليمان هي قوة النبوة إضافة إلى قوة الملك والحكم. وقد هيأ الله له الأسباب جميعها حتى ينفذ مشيئة الله. لقد سخر الله لداود الحديد وسخر لسليمان إذابة المعادن كي يكيفها فيما يصنع. وسخر لداود الجبال والطير تسبح معه، بينما سخر لسليمان الريح التي تحمل الغيث إلى الأرض المباركة، وتسهل له الانتقال في البر والبحر. وقوله تعالى: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ وقوله يلفت انتباهنا إلى قوله ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾. فسليمان صنع السفن وسخر الله له الريح كي ينتقل بسفنه ذات الأشرعة إلى أمكنة بعيدة يدعو فيها إلى عقيدة التوحيد. وكل ذلك إضافة لتربيته الخيول حيث الحاجة للسهول الواسعة وعلاقاته بمملكة سبأ وتجواله. وصنعه المحاريب يدل على أن سليمان كأبيه داود سخر الملك للنبوة وللعقيدة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل على مدى اتساع الجغرافية الطبيعية والبشرية التي تفاعل معها عليه السلام. وكل ما آتاه الله من مؤهلات ومقويات الملك لم تكن لتلهيه عن عبادة الله الواحد والشكر له، وهذا ما نجده متكرراً في القرآن الكريم. يقول: (إن هذا لهو الفضل المبين) ويقول: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لقد كان نبياً أوّاباً ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ مَهيباً وزاهداً بعيداً عن مغريات المادة. ولعل في موته كامل الدلائل على ذلك، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ سورة سبأ 14.

لقد حرفت التوراة سيرة هذا النبي العظيم، وتناست كل هذا الربط بين النعمة الإلهية لسليمان والشكر لله. وركزت همها على البعد السياسي والملكي حيث لم تعترف بنبوته، بل اعترفت بملكه، وجعلت من بنائه هيكلاً قصة القصص في حياته، وكأن سليمان سخر لليهود كي يبني لهم ملكاً دنيوياً فحسب. بينما الواقع القرآني يوضح لنا أن سليمان سار على نهج أبيه داود في الحذر من هؤلاء اليهود المتقلبين، وقد ورث عن أبيه العلم والحكمة. وهذا يستدعي حتماً أن يكون ذا معرفة تامة بطبع اليهود ومعاداتهم للأنبياء والرسل. فداود لعن الذين كفروا من بني إسرائيل، وسليمان بما آتاه الله من قوة الملك وحجة النبوة نحّاهم جانباً بل سخرهم عبيداً بسبب طبيعة نفسيتهم.

ولو دققنا كثيراً في آيات القرآن الكريم لوجدنا أنه لا ذكر لبني إسرائيل في ملك سليمان، فملكه وعدله وحكمته لا تعني هؤلاء. بل هي أشمل وأوسع لأن النبوة خاصية من خصائص اختيار الله واصطفائه.

لقد دفعتهم أحقادهم على سليمان إلى القول بأن سليمان كان يعلم السحر ولا أحد يستطيع أن يجاريه في هذا العلم، وإلا كيف يتمكن من حكم الجن والريح ومعرفة منطق الحيوانات والطيور؟ يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وقد جاءت الآية في سياق قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ سورة البقرة 102.

والحديث واضح حين يركز على بني إسرائيل. لقد رفض بنو إسرائيل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، على الرغم من أنه جاء مصدقاً لما في كتاب موسى عليه السلام، لكنهم رفضوا الصدق واتبعوا الضلال وساروا وراء الشياطين الذين كانوا يتناجون ويتحدثون ويلفقون ما يشاؤون على ملك سليمان، ويدّعون أن سليمان لم يُؤْتَ هذه القدرة والقوة إلا من خلال السحر. وراحوا يطبقون ما يلقنهم إياه الشياطين من كفر وخداع وعمل سوء وتفرقة بين الناس. وقد فضحهم الله وفضح خداعهم إذ قال: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾. فسليمان لم يكن ساحراً بل كان نبياً صادقاً، ولكنها طبيعة هؤلاء الذين أرادوا تشويه سليمان ونفي النبوّة عنه وتلبيسه ثوب السحر والكفر بالله. لقد أوردت التوراة ذاتها أن سليمان أمر بأن تُجمع كل كتب السحر وعلومه حتى لا يضل الناس، وقد جُمع له الكثير وخبأ الكتب تحت عرشه أي كرسي الملك. وعندما توفّاه الله جاء بنو إسرائيل بمساعدة الشيطان وسرقوا هذه الكتب وراحوا يعملون بالسحر في كل حدب وصوب. وأشاعوا أن سليمان كان عظيم السحرة فكفّروه. والواقع أن الذي حدث هو أنهم أخذوا بما قالته الشياطين ولم يأخذوا بتعاليم سليمان التوحيدية. فرد الله سبحانه على قولهم وافتراءاتهم وصدهم صداً عنيفاً.

والواقع أن المنطق التوراتي الذي جاء به الكهنة أيام السبي البابلي ودونوه لم يكن سوى انعكاس لعدة أمور هي في مجملها منطق المتخبط الذي يبحث عن شخصية فذة يتماهى بها المسبيون بعد أن ركبهم الذل والتعذيب والتسخير.

إن ملك سليمان كان ملك العدل والحكمة ونشر دين التوحيد، ولم يجد هؤلاء المسبيون ما يستندون عليه في تاريخهم ليظهروا أنهم أصحاب هيكل أو صروح حضارية.

والواقع أنهم لفقوا قصة هيكل سليمان استناداً على ما رأوه في بابل من عظمة البناء والحضارة. ولم يجدوا في تاريخهم شخصية يتماهون بها مثل ما وجدوا في سليمان، فهم يريدون تشويهه، وينسبون إليه ما لا يُنسب إلى نبيّ. ويقومون بعدة ثورات ضده علهم ينالون منه. وفي الوقت نفسه وبعد أن أخفقوا في كل محاولاتهم اخترعوا قصة الهيكل وحولوا حقيقة عظمة سليمان إلى أساطير ليس لها أساس من الصحة، هم يحقدون على سليمان وفي الوقت نفسه لا يجدون مهرباً من ربطهم به وبملكه؛ لأنهم لا يملكون إلا أن ينسبوا أنفسهم إليه حتى يتماهوا مع الملك والحضارة والقوة.

ولو عدنا إلى آيات القرآن الكريم لوجدنا أن سليمان بعيد كل البعد عن طبيعة حياة بني إسرائيل. فهو نبي يدعو إلى الله، وملك يحكم بقوة ليقيم العدل بين الناس. فهو في هذا ليس يشغله عن الله بناء هيكل يحصر فيه دينه وعقيدته، ويجعله ممنوعاً إلا على كبار الكهنة والأحبار كما تدعي التوراة.

على أية حال، فالمنطق التوراتي الذي تحدث عن سليمان عليه السلام هو منطق يحتاج منا إلى وقفة حتى يتبين الحق من الباطل.

فالتوراة دونت بعد أن سبي بنو إسرائيل إلى بابل، أي بعد سليمان بأكثر من أربعمائة سنة. وهم في هذه الحال المزرية والضعف والذل، أراد الكتبة منهم أن ينسبوا أنفسهم إلى عصر قوي ورجل قوي، حتى يصنعوا لدى المسبيين حافزاً للتمسك بماض مجيد يدفعهم إلى مستقبل مجيد. فما وجدوا إلا النبي سليمان ينسبون أنفسهم إلى مجده، ولكنهم كانوا يعرفون أن سليمان قد أذلهم وسخرهم واستعبدهم بسبب طبعهم اللعين، فأوقعهم الله في حديث يفضحهم ويكشف خبايا نفوسهم المعقدة. فلفقوا على سليمان قصصاً لا تليق بالأنبياء، ولكنهم من جانب آخر وجدوا في شخصية سليمان كما هم يصورون ويتخيلون ـ شخصية تناسب طبعهم؛ لأنهم لو لم يلفقوا على هذا النبي ما قالوه في توراتهم لبرزت شخصية سليمان الحقيقية، شخصية غير عنصرية، شخصية نبي ملك عادل يحكم بين الناس بالحق، يدعو إلى عقيدة التوحيد. وهذا

لا يتناسب مع عقليتهم. فهم يريدون سليمان يهودياً عنصرياً يحكم لهم ضد غيرهم، ولو كانوا على باطل، فما وهبه الله لسليمان لا يرتبط بما يسمى الجانب المادي الثابت في الحضارة، فقد حشر له الجنود من الإنس والجن والطير وسخرت له الريح. ولو كان الأمر مرتبطاً بالثبات بالمكان لما كان سليمان في حاجة إلى ريح غدوها شهر ورواحها شهر؛ فسليمان لا يعرف الثبات في المكان، إنه شخصية نبوية متحركة بحركة دائمة. وكل ذلك في سبيل نشر دين التوحيد.

ولو عدنا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

لقد أراد الله أن يذكّر سليمان بأن الملك لا يدوم لأحد مهما بلغت قوته. وأن الملك هو هبة الله لأجل إقامة العدل بين الناس ونشر دين التوحيد، ولما تنبه سليمان استغفر ربه وأناب وقال (رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي). فمكنه الله من السيطرة على الجن وعلمه منطق الطير وسخر له الريح. فلماذا قال سليمان (من بعدي) أليس ذلك إدراكاً منه بأنه ميت لا محالة؟ فلماذا لا يحب سليمان أن يبقى ملكه لمن بعده ويحكم فيه رجل غيره؟ أليس المنطق الظاهري يقول لنا إن أي ملك يرسخ الملك لأبنائه وأحفاده. فلماذا لا يريد سليمان أن يكون هناك مُلك من بعده يشبه ملكه؟ فالواقع المسألة ليست أنانية وحب الذات، بل المسألة ترتبط بسرٍ لم يدركه إلا سليمان وهو أنه إن جاء من بعده من يتحكم بالجن والطير والريح فإنه سيسخرها في سبيل الذات والشر وظلم الآخرين. وإلا ما المغزى من قوله من بعدي، ما دام الأمر أنه سيموت ولا يهمه من يأتي من بعده وكيف يحكم ومدى اتساع حكمه.

ونلاحظ في هذا السياق قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ سورة سبأ 14.

فهل ندرك أن دعاء سليمان ربّه (رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) يرتبط ارتباطاً أساسياً بموته؟ لقد دخل سليمان ليتعبد وهو عجوز يتوكأ على عصاه فأماته الله وهو واقف متوكئ على عصاه، وظل كذلك لا ندري كم يوماً أو شهراً حتى أخذت دودة الأرض تأكل عصاه من داخلها فتنخرها حتى ضعفت فسقط سليمان. وتبين الجن والإنس موته، وكانوا يظنون أنه حي وهو متوكئ على عصاه. وهذا ما يفسر قوله تعالى: (هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) فقد حكم الجن والإنس في حياته ومماته، والله أعلم كم هي المدة التي استغرقت دودة الأرض وهي تنخر منسأته حتى سقط. ولو كان الجن والإنس يعلمون أن سليمان ميت لفرّوا من ذلك العذاب وذلك الحكم الذي حكمهم به سليمان. فلنتصور حال المملكة، أي مملكة، عندما يموت ملكها، فقد تنقلب انقلاباً جذرياً خاصة إذا كان الملك نبياً والمحكومون متقلبين بين عقيدة وأخرى. فكيف سارت أمور ملك سليمان طوال مدة موته؟ إن الرعب الشديد داخَلَ قلوب الجن والإنس فظلوا خائفين مترقبين عاجزين عن فعل أي شيء ما داموا لا يستطيعون الاقتراب من سليمان وهو متكئ على عصاه. فلنتصور هذه الهيبة السليمانية النبوية وهذه الشخصية الفريدة.

هذا هو سليمان النبي القرآني الأواب، وليس ذلك الذي تصورته التوراة فجعلته زير نساء وجامع ضرائب وقاتل أبرياء. هذه هي محاريب سليمان التي تشهد على نشره معابد التوحيد في كل أرض يصل إليها. وليس ذلك الهيكل الذي صنعوا فيه أصنام ألف امرأة وثنية نسبوها زوراً وبهتاناً إلى سليمان. هذا هو سليمان الذي ورث داود وعدل بين الناس؛ فهل من شبيه لاسم سليمان في توراتهم؟ وهل هم لم يجدوا أحداً من العظماء يتماهون بشخصيته سوى ذلك النبي الموحد العظيم؟

فأين سليمان من قتلة الأنبياء ومحرفي التوراة؟ أين سليمان من شعب قساة الرقاب كما وصفهم موسى عليه السلام؟ أين سليمان من قلوب قاسية وطباع جبلت على الذل وأكل الحرام والعنصرية، وعدم التناهي المطلق عن الحرام؟.

وقفة مع بعض المغالطات حول المسجد الأقصى

هل انقضى عصر الإسرائيليات؟ أو هناك إسرائيليات لكل عصر؟

مصطلح الإسرائيليات عرف منذ أن بدأ علماء المسلمين بتوسيع بحوث التفسير والحديث النبوي الشريف. ولم يعرف عن واحد من علمائنا أنه لم يحذر من الوقوع في هذه الإسرائيليات.

وبداية نعتقد أن غالبية المسلمين القارئين والباحثين يعرفون بشكل عام ماذا تعني الإسرائيليات، على الرغم من أن هذا المفهوم فيه من الضبابية والتشويش ما يجعل الكثيرين من أبناء أمتنا يقعون في تصديق بعض الإسرائيليات، وهم غافلون أو غير منتبهين.

وعودة لا بد منها إلى جذور هذه الظاهرة تعرفنا المصطلح زمانياً ومكانياً. وتعرفنا الأسس والأشخاص والأساليب التي عايشت هذه الظاهرة منذ بدء البعثة حتى يومنا هذا.

قد يظن بعضنا أن الإسرائيليات شاعت كظاهرة في زمن محدد. فأصبحت من الأمور التي تدرس ضمن سياق تاريخي محدد. إلا أن البحث في جوهر الظاهرة يقول لنا إن الإسرائيليات ما تزال تتحرك في عقولنا وكتاباتنا وفتاوينا إلى يومنا هذا.

ـ البدايات: عندما ظهرت الدعوة الإسلامية بظهور سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، رأى بعض اليهود القاطنين في المدينة (يثرب) وما حولها أن هذا النبي هو الذي بشر به الأنبياء في كتبهم، وخاصة النبي موسى عليه السلام، وكذلك عيسى عليه السلام فدخلوا الإسلام وحسن إسلامهم. ومن اليهود من أظهر إسلامه وأبطن يهوديته، وذلك لغاية في نفوسهم، ومن أمثلتهم عبد الله بن سبأ.

وعلى الرغم من ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمر المسلمين أن لا يتخذوا كلام هؤلاء مرجعاً من مراجع العقيدة أو التاريخ. فقال فيما معناه

استمعوا لهم دون أن تصدقوا أو تكذبوا. وإذا تفحصنا نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأخذ من أهل الكتاب، وخاصة اليهود الذين أسلموا، أدركنا خطورة المسألة.

فقد تحدثت المصادر عن شخصيات بارزة من هؤلاء اليهود الذين أسلموا وكان على رأسهم عبد الله بن سلام وكان حبراً يهودياً. ومنهم كعب الأحبار، ووهب بن منبه. وثلاثتهم كانوا على علم واسع بالتوراة والأنبياء وتاريخ بني إسرائيل. ولما كان كتاب التوراة الذي تداولوه هو الذي كتبه عزراً الكاتب أيام السبي البابلي، أي التوراة المحرفة عما نزل على موسى وأنبياء بني إسرائيل، فقد حفظوا ما فيه من أسفار وما حوته من انحراف وتشويه وتخريف وأسطورة، فاختلطت في عقولهم الحقيقة بالخرافة. ولم تكن هذه الأمور بِنْتَ ساعتها، بل توارثها بنو إسرائيل منذ عام 570ق. م، حتى بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد تراكمت في التعاليم والعقول والنفوس حتى أصبحت جزءاً من العقلية اليهودية. وحين تناول القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قصص الخلق والأنبياء والأمم السالفة راح بعض هؤلاء اليهود يدلون بدلوهم في الحديث عنها مستندين على ما تعلموه من كتاب التوراة وتعاليم الأحبار. لذلك أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم خطورة ذلك لما فيه من انحراف عن الحقيقة، ولما فيه من تناقض مع العقيدة الصحيحة، ولذلك جاء نهيه واضحاً عن الأخذ من هؤلاء اليهود.

وإذا حاولنا أن نرصد هذه الإسرائيليات التي بثت بأسلوب أو بآخر بين المسلمين الأوائل وجدنا أنها تنقسم إلى قسمين كبيرين:

1 ـ القسم الأول ويتعلق بالخلق والغيبيات.

2 ـ والقسم الثاني وهو يتعلق بفلسطين وبيت المقدس.

أما الإسرائيليات الخاصة بالغيبيات، فقد كشف أكثرها علماء المسلمين، وكان على رأسهم ابن حزم الأندلسي وابن قيم الجوزية، وأسهَم في الكشف عن بعضها

المفسرون الحاذقون أمثال ابن كثير والطبري على الرغم من أن العالمين الأخيرين وقعا في بعض المطبات والمحظورات من الإسرائيليات، ولذلك قلنا أسهم في الكشف عن بعضها الحاذقون من المفسرين وليس كلهم.

ولعل الأخطر في ذلك أن ما تسرب من الإسرائيليات لم يكن كله مكشوفاً أو قابلاً للكشف إلا بصعوبة بالغة. لذلك وقع بعض المفسرين في المطب واستندوا في بعض تفسيراتهم على ما تسرب من هذه الإسرائيليات.

ولما كان هدفنا في هذا الإطار الوقفة المتأنية عند القسم الثاني من هذه الإسرائيليات؛ أي القسم المتعلق بفلسطين وبيت المقدس، فقد آثرنا أن لا نطيل في الحديث عن القسم الأول.

ومن أمثلة ذلك القسم الأول ما أورده الثعلبي النيسابوري في كتابه المسمى عرائس المروج ـ قصص الأنبياء ـ عن أن الأرض خلقها الله على قرني ثور. أو قوله عن عوج بن عناق الذي كان عملاقاً خرافياً. ومنها الحديث عن أشكال الجن والملائكة وما شابه ذلك.

وهذه الأمور تصدى لها المفسرون القدامى واستطاعوا باستنادهم على القرآن الكريم والسنة الشريفة أن ينسفوها من جذورها؛ لأنها تخالف العقيدة والمنطق والعقل ومسار التاريخ.

ولكنهم عندما تعرضوا للإسرائيليات غير الغيبية وخاصة ما يرتبط بحياة بني إسرائيل وعلاقاتهم بالمنطقة وفلسطين تحديداً وقعوا في مطبات وأشراك، كان لها الأثر السلبي البالغ على كثير من المسلمين، وظل هذا التأثير ملموساً حتى يومنا هذا.

قد يقول قائل إن تسريب الإسرائيليات كان في وقت مضى لأسباب كثيرة أهمها تشويه الإسلام في وقت كانت الدعوة الإسلامية في بدايتها. وظن هؤلاء أن التسريب توقف عند حدود تاريخية معروفة، فما حاجتنا اليوم لنفتح هذا الملف من جديد؟ نعتقد أن الحركة الصهيونية، وخاصة بعد احتلال فلسطين، ركبت موجة

الإسرائيليات بوصفها واحدة من الأساليب الإعلامية الكثيرة التي تروج لما يسمى أرض إسرائيل، والهيكل وأرض الميعاد الخاصة باليهود. والمستند الديني وكذلك التاريخي كانا وما يزالان من المستندات الهامة التي تحاول الصهيونية العمل فيهما بشكل كبير ومكثف؛ لتنسف كل مقولات الشعب الفلسطيني المسلم، ولتكرس الباطل على حساب الحق. وقد استطاعت وسائل الإعلام الصهيونية أن تسرب آلاف المقولات الخاصة بالقدس وأرض فلسطين، التي تركّز دوماً على ما يسمى الحق التاريخي والديني لليهود في فلسطين وما جاورها. ولكن وسائلها تنوعت واختلفت. وكان من بينها تسريب بعض المقولات لدى أوساط إعلامية وثقافية وتاريخية عربية إسلامية. وهذه المقولات ليست إلا امتداداً لتسريب الإسرائيليات في العصور الإسلامية الأولى. فهي تدخل في دائرة التفاسير القرآنية وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتراثيات الدينية والتاريخية الإسلامية.

ومن الإسرائيليات في كتب التفسير ما يذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أي الآيات من 4 ـ 8 من سورة الإسراء.

فقد روي من الإسرائيليات اسم من سلط على بني إسرائيل وصفته، وكيف كان وإلام صار. وقد كانت الروايات في معظمها في بيان العباد ذوي البأس الشديد الذين سلطوا عليهم تدور حول بختنصر البابلي. وقد أحاطوه بهالة من العجائب

والغرائب والمبالغات التي لا تصدق، وقد أخرج هذه الروايات ابن جرير في تفسيره وابن أبي حاتم والبغوي وغيرهم عن ابن عباس وابن مسعود وعن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعن السدي وعن وهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهم، وخرّجها من غير ذكر أسانيدها مع عَزْوها إلى مخرجيها السيوطي في الدر المنثور. وفيها ولا شك الكثير من أكاذيب بني إسرائيل التي اختلقها أسلافهم، وتنوقلت عليهم ورواها أخلافهم من أهل الكتاب الذين أسلموا. وأخذها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسيناً للظن بهم، وقد أشاع أهل الكتاب أن إفساد بني إسرائيل حدث في الأيام الغابرة، وأنهم علوا علواً كبيراً فيما سبق. أي قبل الإسلام.

ونعتقد أن اعتماد هذا التفسير لدى بعض المسلمين يبعدهم عن حتمية الصراع المستمر مع اليهود، حيث إن قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لا ينطبق على الزمن الماضي بل على الزمن المستقبل، وكونه حدد المسجد بالمسجد الأقصى فقد وضح الأمر.

وكثير من علمائنا اليوم يعتمدون التفسيرات التي تقول بحدث الإفساد والعلو في الزمن الغابر، متغافلين عن الأفعال المضارعة التي تدل على المستقبل - يسوءوا - يدخلوا - يتبروا، ومتغافلين عن قوله - عباداً لنا - ومتغافلين عن تسمية الأقصى بالمسجد، ومتجاهلين التحليل التاريخي للأحداث على ضوء مفاتيح القرآن الكريم. ولو أن تلك الإسرائيليات والأباطيل وُقِفَ بها عند رواتها من أهل الكتاب الذين أسلموا، أو عند من رواها عنهم من الصحابة والتابعين لهان الأمر، ولكن عظم الإثم أن تنسب إلى المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم صراحة. ولا نشك في أن هذا الدس من عمل زنادقة اليهود أو الفرس.

يقول الشيخ العلامة الدكتور محمد أبو شهبة: إن المراد من سياق قصة الإفساد والعلو ما قضاه الله على بني إسرائيل أنهم أهل فساد وبطر وظلم وبغي. ودلت الآيات من سورة الإسراء على أن بني إسرائيل لا يقف طغيانهم وبغيهم

وإفسادهم، بل الآية توحي بأن ذلك مستمر إلى ما شاء الله، وأن الله سيسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب ويبطش بهم ويرد ظلمهم وعدوانهم واستهانتهم بالقيم والحقوق الإنسانية.

ومن أخطر ما سرب ويسرب في هذا العصر القول بأن الصخرة التي تحت قبة مسجد الصخرة. كانت قبلة اليهود. وقد نشر في مجلة الفرقان الكويتية في العدد 201 وبتاريخ 29 ربيع الآخر 1423هـ مقالة تحت عنوان أحكام قبة الصخرة، وأطلق على كاتبها اسم حاي الحاي. جاء في المقال ما نصه: الصخرة، التي في بيت المقدس هي قبلة اليهود، وكانت كذلك قبلة المسلمين في أول الأمر، ثم نسخت بالمسجد الحرام في مكة.

فهذا من الإسرائيليات المعاصرة التي يراد من ورائها القول إن لليهود حقاً دينياً في فلسطين لأن قبلتهم فيها. وما وراء ذلك دعوة للكف عن الجهاد وتحرير الأرض المباركة فلسطين من أيدي الصهاينة اليهود، ما دام هناك اعتراف بأن قبلتهم صخرة المسجد المسمى مسجد قبة الصخرة، الذي هو جزء من الحرم القدسي الشريف.

ولو عدنا إلى آيات القرآن الكريم ودرسنا سيرة النبي إبراهيم لأدركنا أنه عندما رفع قواعد البيت الحرام وبنى الكعبة دعا الناس جميعاً إلى الحج وليس المسلمين وحدهم. ولو كان اليهود يتبعون دين إبراهيم حقاً لاتجهوا نحو قبلته. ولكنهم ولغايات سياسية ودينية، أشاعوا أن الصخرة الواقعة تحت القبة في الحرم القدسي كانت قبلتهم. وجاء من المسلمين من يعزز هذه الإشاعات ـ الإسرائيليات ـ الخطيرة.

وعلى ذلك فإن سؤالاً يطرح نفسه: إذا كانت الكعبة قبلة الموحدين منذ زمن بعيد جداً ويعترف بمكانتها العرب والفرس وغيرهم، وإذا كان الله سبحانه اختارها لتكون كذلك بالنص القرآني الصريح، فما الذي جعل اليهود يقولون بأن الصخرة هي قبلتهم؟ هل بشرهم الله بذلك في توراتهم؟ إن توراتهم لم تشرْ لا من قريب ولا من بعيد إلى شيء اسمه قبلتهم، بل اخترعت ما يسمى الهيكل ونسبوه إلى سليمان

عليه السلام والهيكل غير موجود لا في الحقيقة ولا في الجغرافيا، بل هو اختراع تصوروه وبنوا عليه ادعاءاتهم وبهتانهم وتزويرهم التاريخ والحقيقة.

إن إبراهيم بنى الكعبة في وادي مكة الخالي من البشر بتاتاً؛ بينما كانت فلسطين عندما جاء بنو إسرائيل وتسربوا، كانت مسكونة بأهلها الذين لهم معابدهم وعقائدهم وأرضهم، فهل اختار الله أرض شعب فلسطين ليسلبها ويمنحها إسرائيل، ثم يأتون ليقولوا إن الصخرة هي قبلتهم؟ إن قبلة التوحيد هي الكعبة وهي لجميع الموحدين في الكون كله، فمن أراد أن يتبع ملة إبراهيم عليه أن يتبع قبلته ولا يخترع لنفسه قبلة أخرى. لأن قبلة إبراهيم اختارها الله. وما عداها اختيار بشري قابل للتغير أو التبدل. وشتان بين اختيار الله والاجتهاد البشري.

إن إسرائيليات اليوم أخطر بكثير من إسرائيليات الأمس. وما هي إلا من أخطر الوسائل الإعلامية التي يدرك أهميتها اليهود. لقد كانت إسرائيليات الأمس تدس في التفاسير لتؤسس في أذهان المسلمين مقولات كثيرة ترتبط بالمستقبل القريب والبعيد وإلى قيام الساعة. وما يخص فلسطين وبيت المقدس هو الأخطر في ذلك كله. وها نحن نسمع كل يوم مقولة جديدة هنا وهناك، يريدون من ورائها تثبيت وجود الباطل اليهودي والاعتراف به أمراً واقعاً.

لقد نسوا أو تناسوا وتغافلوا عن عمد عن آيات القرآن الكريم الحاثة على الجهاد وعدم موالاة الكفار من اليهود. وتناسوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تحض على مقاتلة الغزاة المحتلين وطردهم من ديار المسلمين. ولم يتذكروا في هذا الوقت بالذات سوى الإسرائيليات التي تريد تحطيم إيمان الأمة وجهاد شعبها في فلسطين، وتكريس الاحتلال الصهيوني الغاصب والاعتراف به أمراً واقعاً.

ولو عدنا إلى ما قاله المغالطون حول المسجد الأقصى لرأينا أنه لا بد لنا من وقفة متأنية حول المسألة لأنها بالغة الحساسية والخطورة.

لقد ابتلي المسلمون ببعض (المشايخ) الذين حجروا الإسلام في البداية، ثم ما لبثوا أن بدؤوا يبثون سموم المقولات الصهيونية التوراتية، ولا ندري ما الذي يفتون به في المستقبل. فلعله يصل حد الوقاحة والتجرؤ على الثوابت الإسلامية المعروفة. ففي مجلة الفرقان الكويتية العدد 201 وبتاريخ 29 ربيع الآخر 1423 هـ نشرت مقالة تحت عنوان أحكام حول قبة الصخرة، وكتب في رأس صفحتها الثانية اسم الكاتب تحت اسم الشيخ حاي الحاي. وعلى الأغلب فإن هذا الاسم مستعار وضع كي لا يفتضح أمر الكاتب الحقيقي، وإن كان الاسم حقيقياً فإنه يدل على شخص ينتمي للعقيدة اليهودية، فهو ليس من أمة الإسلام ولا ملتها.

جاء في بداية الفتوى سؤال يقول: هل تدخل قبة الصخرة ضمن القباب المنهي عنها وما حكم إطلاق لفظ المشرفة؟

ويأتي الجواب على الشكل التالي: الصخرة التي في بيت المقدس هي قبلة اليهود، وكانت كذلك قبلة المسلمين في أول الأمر، ثم نسخت بالمسجد الحرام في مكة، وأول قبة بنيت في الإسلام كانت على الصخرة في بيت المقدس.

وهذا الكلام الذي يفتي به الشيخ حاي الحاي ينم عن طعن في القرآن الكريم والإسلام، وينم عن جهل مطبق بالحقائق التاريخية، ثم ينم عن شخصية مشبوهة أرادت نشر هذا الكلام في هذا الوقت بالذات، ليخدم المقولات الصهيونية، بينما يشن الجيش الصهيوني أشرس جملة إبادة ضد الشعب الفلسطيني.

فالله سبحانه يقول في كتابه العزيز: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ سورة الإسراء الآية 1.

فللتذكير فقط نعيد صاحب الفتوى إلى القرآن الكريم. فسورة الإسراء نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، وقد ارتبطت بحادثة الإسراء،

حيث أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

فإذا كانت بقعة المسجد الأقصى مباركة، فإن المباركة عمت ما حوله، والحرم القدسي الشريف يضم المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة وحائط البراق.. فالصخرة بقعة، وهي مباركة، وإذا كان الناس يطلقون عليها الصخرة المشرفة، فليس ذلك من باب التقديس أو الوثنية، وما سمعنا في تاريخنا أن مسلماً قدس هذه الصخرة من باب العبادة أو الإشراك.

وإذا كان المسلمون في فلسطين اليوم يقاتلون لأجل استرداد المسجد الأقصى وأرضهم المباركة فلسطين، فإن ذلك ليس من أجل هذا البناء، أي من أجل قبة الصخرة، بل من أجل البقعة المباركة التي تضم الحرم القدسي بأكمله.

وقد قال الشيخ كاتب الفتوى: الصخرة التي في بيت المقدس هي قبلة اليهود، فهل لديه دليل أن هذه الصخرة قبلة اليهود؟ هل عاد لدراسة تاريخ فلسطين قبل أن تظهر الغزوة العبرانية، ألم يكن الكنعانيون العرب الذين كان لهم صلة بالغة القوة مع إبراهيم أبي الأنبياء هم من عمروا مدينة يبوس (القدس) وأقاموا معابدهم فيها؟

وإذا رجعت إلى نصوص التوراة التي بين أيدينا رأيت أنه لا وجود لذكر الصخرة بتاتاً من بين معابد اليهود، فهم يدعون أن هيكلهم يقبع تحت المسجد الأقصى وليس تحت قبة الصخرة، فمن قال لك إن هذه الصخرة كانت قبلة اليهود؟

لقد بدأ الاهتمام بقبة الصخرة والمسجد، وبالصخرة نفسها منذ أن وقعت حادثة الإسراء وليس قبلها. وعندما دخل الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس سأل المسيحيين عن مكان المسجد الأقصى، فدلوه عليه، وكانوا يعرفون أن هذا المكان يخص المسلمين، لما له من علاقة بحادثة الإسراء، ولما له من علاقة بسورة الإسراء

والقرآن الكريم. وتؤكد كل المصادر الإسلامية أن الخليفة نظف مكان المسجد الأقصى، وأقام عليه ثمانية أعمدة مغطاة واعتبرت من ذاك التاريخ مسجداً، وظل قائماً إلى يومنا هذا.

أما قوله: وكانت كذلك قبلة المسلمين في أول الأمر ثم نسخت بالمسجد الحرام في مكة.. فإذا كانت قد نسخت قبلةً يتوجه نحوها في صلاتهم فإن المسجد الأقصى والحرم القدسي الذي يضم الصخرة وقبتها لم ينسخ مسجداً مباركاً. ومنزلته لا تقل عن منزلة المسجد الحرام بسبب اختيار الله سبحانه وتعالى. المسجد الحرام والمسجد الأقصى مكانان يرمز بهما إلى عقيدة التوحيد، وذلك من خلال تسميتهما بالمسجد.. وأَلفتُ انتباه الشيخ إلى أن تسمية مسجد للأقصى تعني أن الإسلام نسخ العقائد السابقة بما فيها العقيدة اليهودية، فإذا كان الشيخ يتخيل أن الصخرة كانت قبلة اليهود فإن الإسلام نسخ اليهودية، ونسخ كل ملحقاتها من معابد وطقوس، هذا إذا كانت الصخرة قبلة لليهود وهو أمر مرفوض تاريخياً وعقيدياً وعلمياً.

ويقول الشيخ: وأول قبة بنيت في الإسلام كانت على الصخرة في بيت المقدس، ويورد أقوالاً لابن تيمية رحمه الله منها قوله: وأما الصخرة فلم يُصَلّ عندها عمر ـ رضي الله عنه ـ ولا الصحابة، ولا كان على عهد الخلفاء الراشدين عليها قبة، بل كانت مكشوفة في خلافة عمر وعثمان وعلي ومعاوية ويزيد ومروان، ولكن لما تولى ابنه عبد الملك الشام سنة 86هـ ـ ووقعت بينه وبين ابن الزبير الفتنة كان الناس يحجون، فيجتمعون بابن الزبير، فأراد عبد الملك أن يصرف الناس عن ابن الزبير. فبنى القبة على الصخرة وكساها في الشتاء والصيف ليرغب الناس في زيارة بيت المقدس، ويشتغلوا بذلك عن اجتماعهم بابن الزبير، وأما أهل العلم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فلم يكونوا يعظمون الصخرة فإنها قبلة منسوخة الفتاوى 27/ 12.

ويعلق الشيخ كاتب المقالة بقوله: فبناء القبة على هذه الصخرة فيه تعظيم لها، وهذا مخالف لما عليه أهل العلم من الصحابة والتابعين، كما قال ابن تيمية، ويتابع قوله كما لو أن في بناء القبة على هذه الصخرة تشبُّهاً باليهود الذين يقدسون الآثار والأحجار ونحوها. ومعلوم أن اليهود تقدس هذه الصخرة لأنها قبلتهم.

أما قوله بأن سبب تشييد القبة خلاف بين عبد الملك وابنه الوليد من جهة، والزبير من جهة ثانية، فهذا أحد الآراء، وهناك رأي آخر أجده الأصح والأقوى، وهو أن النصارى في مدينة القدس كانوا يتفاخرن بقبة كنيسة القيامة لكونها البناء الأعلى في المدينة، وكانوا يستخفون بالمسلمين ويتهمونهم بالتخلف وعدم القدرة على مضاهاتهم في البناء العمراني والحضارة العمرانية، فاشتكى المسلمون إلى الخليفة الأموي، الأمر الذي دفعه لبناء قبة الصخرة التي يراها الناس من أربع جهات، بينما قبة كنيسة القيامة كانت لا ترى إلا من ثلاث جهات، وكان علوها قد فاق علو قبة الكنيسة، وقد ورد ذلك في عدة مصادر إسلامية، وبناء قبة الصخرة لا يزيد هذه البقعة شرفاً وبركة فهي مباركة منذ زمن بعيد، والناس إنما تتبارك بالبقعة المباركة، وليست قبة الصخرة إلا جزءاً من هذا المكان المبارك، ومن الجدير ذكره أن قبة الصخرة أصبحت على مر الأجيال رمزاً للمسلمين على أصالتها الإسلامية، والدفاع عنها ليس دفاعاً عن كومة أحجار وصفيح، بل الدفاع عنها لأنها تحمل من المباركة والتاريخ ما تحمل.

يقول استناداً على قول آخر لابن تيمية رحمه الله: قصة بناء الكعبة على الصخرة في أيام عبد الملك، قيل ليكثر قصد الناس لبيت المقدس، لينصرفوا عن ابن الزبير خصم عبد الملك، ويعلق قائلاً: فبناء القبة على هذه الصخرة فيه تعظيم لها، وهذا مخالف لما عليه أهل العلم من الصحابة والتابعين.

فإذا كان بناء القبة فوق الصخرة تعظيماً لها، فما قولنا في توسيع بناء الحرم في مكة، وما بالنا في تجديد بناء الكعبة مرات عدة، وما بالنا في المآذن العملاقة الموجودة في مسجد رسول الله صلى عليه وسلم؟ هل هي أيضاً مخالفة لما عليه أهل العلم والصحابة والتابعين، وإذا كانت مخالفة فلم يقوم الحكام في الجزيرة على تجديد بنائها وتوسيعها وما إلى ذلك؟

إن وجود قبة فوق الصخرة ليس معناه أنها صارت وثناً نعبده، ولكنها أمر يتوافق مع تطور العمران وتطور الحضارة العمرانية.

وبناء القبة على الصخرة لا يؤدي إلى تعظيمها والمبالغة في الصلاة عندها، ونحن نعرف قبل غيرنا أن الصلاة في المسجد الأقصى (الحرم القدسي الشريف كله) كخمسمائة صلاة في غيره من المساجد، فإن كانت القبة موجودة أو غير موجودة فإن أهمية الصلاة في الحرم القدسي لا تنقص.

وقد ورد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الكثير عن فضل الصلاة في بيت المقدس، منها حديث ميمونة الذي رواه أحمد في مسنده ورواه ابن ماجة. ومنها حديث معقل الأسدي الذي رواه أحمد أيضاً. ومنها ما رواه البزار والطبراني. ومنها حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، وقد روي من ستة عشر طريقاً.

فقدسية بيت المقدس قدسية ربانية خصها بها الله سبحانه، المسلمين، وأما القبة فهي تشمخ بمهابة تفوق مهابة أكثر الأماكن قدسية في مدينة القدس، ووجودها تأكيد أن الإسلام قد أتى ليستمر، والقبة كما يرى الكثير من الباحثين والمؤرخين تأكيد للهوية الإسلامية لمدينة القدس وفلسطين، حتى إنها أصبحت نموذجاً لجميع المباني الإسلامية فيما بعد.

أما لماذا اطلع علينا هذا الشيخ بهذه الفتاوى في هذا الوقت بالذات فللقصد ظلال نتعرف عليها: فالصراع بين المسلمين وبين اليهود هو صراع عقيدي بالدرجة الأولى، وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ملامح هذا الصراع من خلال سورة الإسراء وسورة الأعراف المكيتين، ومن خلال سياق الحديث الكلي عن بني

إسرائيل ومن لف لفهم في القرآن الكريم والسُّنّة المطهرة فاليهود يقاتلون ليلاً ونهاراً ويحفرون الأرض والجدران ليعثروا على أي أثر لهم في جوانب المسجد الأقصى، ليقولوا إنهم أصحاب حق في فلسطين ـ ولم يعثروا على شيء، فإذا كانوا حائرين تائهين في كيفية تصدير خداعهم وكذبهم، فيا للعجب من شيخ يأتي اليوم ليقول إن الصخرة هي قبلة اليهود! إن هذا الكلام يدفع ثمنه اليهود كل المليارات من الدولارات، خاصة إذا صدر عن شيخ محسوب على الأمة الإسلامية.

وكأني بهذا الشيخ يقول: لماذا يا فلسطينيون تقاتلون (إسرائيل واليهود) من أجل الحرم القدسي الشريف والصخرة الموجودة تحت القبة وهي قبلة لهم؟ وعليكم يا عرب ويا مسلمون أن توقفوا صراعكم مع هؤلاء اليهود، لأن لهم حقاً دينياً في القدس وفلسطين، وما هذه الدعوة إلا من مغرضين مستسلمين خانعين أذلاء، بل من أناس رهنوا دينهم وشخصيتهم للصليبيين الأميركيين واليهود الصهاينة.

ولو أن فلسطين اليوم ليست واقعة تحت الاحتلال اليهودي الصهيوني لما سمعنا مثل هذه الأقاويل والترهات. ولكن كيف تؤجّر النفوس لليهود والصليبيين إن لم يكن موضوع القدس وفلسطين هو المحور في ذلك؟

إن فلسطين وفي قلبها القدس أرض مباركة من الله سبحانه، والمسجد الأقصى ليس أقل أهمية في قدسيته من المسجد الحرام. فإذا كان المسجد الأقصى يئن تحت نير الاحتلال فليس أمامنا نحن العرب والمسلمين إلا تطبيق أمر الله سبحانه، في الجهاد لاستخلاص حقنا.

وحبذا لو يكرس هذا الشيخ المتمشيخ كل كتاباته لإظهار فتاوى الجهاد من أجل أرض غالية عزيزة على قلوب المسلمين جميعاً. ولست أدري أيجرؤ مثله على إبراز فتاوى الجهاد أم أنه موظف في الإدارة الأميركية الصهيونية ليشغل المسلمين بقضايا دون قضايا. فإن كنت يا شيخنا حريصاً على الإسلام وأرض الإسلام فما عليك إلا أن تكتب ما أمر الله به من الجهاد والقتال حتى تتحرر القدس وفلسطين المباركة.

تدويل القدس وتقسيم فلسطين في ميزان الرؤية الإسلامية:

مضى على قرار تقسيم فلسطين ما يقارب الخمسة والخمسين عاماً. وعلى الرغم من أن هذا القرار لم ينفذ على الأرض، إلا أن الكثيرين من أبناء الشعب الفلسطيني، اعتبروه التمهيد الثاني لقيام الكيان الصهيوني بعد تمهيد بلفور واتفاقيات سايكس بيكو.

في قراءتنا لقرار التقسيم، نرى أن تنفيذ اتفاقيات سايكس بيكو ووعد بلفور، ظلا محور الرؤية الغربية منذ ما قبل عشرينيات القرن العشرين، حتى قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين. فهذه الاتفاقيات قسمت الوطن العربي وأوقعته تحت ما يسمى الانتداب، وكانت فلسطين قد وقعت تحت نير الانتداب البريطاني لتنفذ وعود زعمائها بإقامة وطن لليهود في فلسطين، وليس كما جاء في نصوص الانتداب أنه يقع للأخذ بيد الشعوب نحو عالم سياسي واجتماعي أفضل.

لماذا أقرت هيئة الأمم المتحدة قرار التقسيم؟

تشير الوثائق إلى أن اليهود بعد أن دفعتهم الدول الغربية والوكالة اليهودية للهجرة إلى فلسطين، وتسهيل قدوم الآلاف منهم، صاروا يشكلون 32 بالمئة من مجموع السكان ويملكون 5 . 5 بالمئة من الأرض الفلسطينية، استولوا عليها من خلال عقود شراء وبيع مع سماسرة وإقطاعيين غير فلسطينيين.

لم يمض وقت طويل على تأسيس الهيئة الدولية، وجاء قرار التقسيم ليشير بوضوح ومنذ البدء، إلى أن هذه الهيئة لم تشكل لتحقيق طموحات الشعوب في الاستقلال بل لتكرس العدوان وترسخ الظلم والقهر.

فقرار التقسيم نص حرفياً على تقسيم فلسطين إلى قسمين، القسم الأول يهودي، والقسم الثاني عربي، وبموجبه يمنح اليهود 56 بالمئة من مساحة فلسطين، وقد انتقيت لهم أجود الأراضي وأخصبها.

وبالمقارنة نرى أن القرار يحشر الفلسطينيين الذين يشكلون عام 1947 ما نسبته 68٪ من مجموع السكان في أراض تساوي 44٪ من المساحة الكلية لفلسطين.

ومن الواضح جداً أن دول التحالف الغربي، أرادت من وراء هذا القرار إقامة دولة لليهود قابلة للحياة، بينما أعطت الفلسطينيين أراضيَ جبلية وصحراوية ليست

قابلة للحياة. وكان من الطبيعي أن يرفض الشعب الفلسطيني هذا القرار جملة وتفصيلاً. ليس لأن اليهود يحصلون بموجبه على أراض أكبر وأخصب، بل لأن القرار يسلب الفلسطينيين أراضيهم وحقوقهم الجغرافية والدينية والتاريخية. وبدا القرار مؤامرة وخيانة لمبادئ الأمم المتحدة التي نصت على عدم المساس بحقوق الشعوب.

آليات المشروع والمناورات الجشعة:

عندما اجتمعت الجمعية العمومية في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام 1947. بدا واضحاً أن الولايات المتحدة، تسيطر عليها سيطرة تامة، خاصة أن الدول المنتسبة لها في غالبيتها كانت جديدة العهد في الاستقلال.

وقد شهد التصويت على مشروع التقسيم مناورات جشعة. وبدا عداء أميركا والغرب لمصالح المسلمين والعرب واضحاً.

وقد تحدث لورنس سميث عضو الكونغرس الأميركي، قائلاً في الكونغرس: (لننظر إلى ما حدث في هيئة الأمم المتحدة إبان اجتماعها الذي سبق التصويت على التقسيم. كان لا بد من تأمين ثلثي الأصوات اللازمة لتصديق القرار. وقد أجل التصويت مرتين، كي يمارس الضغط على مندوبي ثلاث دول صغيرة هي: هايتي وليبريا والفلبين، التي صوتت بالموافقة، فتم بذلك تأمين أغلبية الثلثين اللازمة. وكانت هذه الدول الثلاث قد عارضت مشروع التقسيم. ولكن الضغوط التي مورست عليها من قبل مندوبينا ومسؤولينا ومواطنينا الأميركيين كانت تصرفاً ذميماً يستوجب العقاب). ومن المعروف آنذاك أن الرئيس ترومان قد مارس ضغطاً لم يسبق له مثيل على أعضاء الدولة الأميركية كي يعملوا على تأمين الأغلبية اللازمة للاقتراع النهائي على التقسيم.

وأما وزير الدفاع آنذاك فورستال فقد أكد (أن الطرق التي استخدمت في الضغط بغية إرغام باقي الدول في هيئة الأمم على التصويت، كانت أقرب ما تكون إلى الفضيحة). وقد اعترف ترومان نفسه أمام فريق من الدبلوماسيين عام 1946 بوقائع الضغط الموجه من اللوبي الصهيوني فقال: (أنا آسف يا سادة ولكن عليَّ أن ألبي رغبة مئات آلاف الأشخاص الذين ينتظرون نجاح الصهيونية، وهذه الألوف المؤلفة من الناخبين الأميركيين ليسوا عرباً) ويشهد رئيس مجلس الوزراء البريطاني السابق (أتلي)

في مذكراته على أن سياسة الولايات المتحدة في فلسطين كانت توجهها أصوات الناخبين اليهود والمعونات المالية التي تقدمها عدة شركات يهودية كبيرة[1].

ومن المعروف أن قرار التقسيم صدر عن هيئة الأمم المتحدة وتبنته الجمعية العمومية، وليس مجلس الأمن، وبهذا الشكل لا يكون القرار ملزماً باعتباره توصية ليس أكثر وليس قراراً تنفيذياً. لقد رفض الفلسطينيون القرار رفضاً قاطعاً، لأنه سلبهم حقوقهم التاريخية والدينية والوطنية. بينما كان الصهاينة يقسمون أدوارهم بحيث يظهر بعضهم القبول ويظهر بعضهم الآخر الرفض. وقد أعلنت آنذاك عصابة الأرغون بقيادة مناحيم بيغن أن هذا التوزيع غير عادل ولن تعترف به أبداً، ولم تَدْعُ الأرغون إلى طرد العرب فحسب، بل دعت إلى الاستيلاء على فلسطين كلها.

وفي ضوء قرار التقسيم الصادر عام 1947 فإن الهيئة أقرت أن القدس يجب أن تكون كياناً مستقلاً، يتبع نظاماً دولياً خاصاً تحت إدارة الأمم المتحدة. وسيؤلف مجلس وصاية يؤدي مهام السلطة الإدارية بالنيابة عن الأمم المتحدة. أما حدود الكيان المستقل فيشمل حدود بلدية القدس في ذلك الحين، إضافة إلى القرى والبلدات المجاورة، أقصاها شرقاً أبو ديس، وجنوباً بيت لحم، وغرباً عين كارم، وشمالاً شعفاط.

وللتذكير فقط فقد أورد برنادوت الوسيط الدولي، تقريراً آنذاك قال فيه: إن مدينة القدس تقع وسط الإقليم العربي، وإن أي محاولة لعزلها سياسياً أو غير ذلك، عن الإقليم العربي المحيط بها تنطوي على صعاب جمة. ولا يعني إدخال القدس ضمن الإقليم العربي، بأي حال، سيطرة العرب على اليهود أو غيرهم من الشعوب غير العربية أصحاب المصالح في تلك المدينة.

ماذا يعني التدويل؟

لقد خدع الكثيرون بمصطلح التدويل. والحقيقة أنه تنظيم إنشائي لكيان دولي جديد، يلبي حاجة المجتمع الدولي للاتفاق أو التراضي، لإخراج منطقة معينة من سيادة الدولة أو الكيان الذي كانت تتبع له من قبل، وإسناد ممارسة السيادة فيه إلى هيئة دولية تدير شؤونها بصفة دائمة.

---

(1) روجيه غارودي ـ فلسطين أرض الرسالات ص 262 ـ 263.

والتدويل الذي يخص القدس حسب ما جاء في القرار يحمل صفة الديمومة. وهو بذلك يختلف عن نظامي الانتداب والوصاية. وهو يتجه إلى فكرة الملك الدولي، لا يجوز حيازته في وقت من الأوقات، وذلك لغرض دولي أو حاجة دولية. ويشرف على هذا الكيان مندوبون من الدول الخمس في مجلس الأمن وأعضاء آخرون منتخبون من الجمعية العامة لمدة ثلاث سنوات. على أية حال فإن هذا القرار لم يطبق ولم تدول القدس. بل إن الكيان الصهيوني أعلنها عاصمة له، ثم قام باحتلال المدينة القديمة منها. واستولى على المسجد الأقصى والأماكن المقدسة وضربت كل القرارات الدولية عرض الحائط، خاصة بعد أن ترجم انحياز البريطانيين والأميركان إلى مساعدة فعلية لليهود ضد العرب والمسلمين. واستخدموا دوماً حق الرفض أو النقض كلما صدر قرار يطالب الصهاينة بالانسحاب من القدس، غير أن كل ذلك كان في اتجاه، وحقيقة القرار كانت في اتجاه آخر.

القرار والأماكن المقدسة:

خص القرار الأماكن المقدسة في القدس ببعض الفقرات فجاء في المادة الأولى: لا يجوز أن يلحق أي مساس بالحقوق القائمة المتعلقة بالأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية.

وجاء في الثانية: تضمن حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية، وحرية ممارسة العبادة، وفقاً للحقوق القائمة، شرط مراعاة حفظ النظام واللياقة.

وجاء في الثالثة: تصان الأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية، ويحرم كل فعل من شأنه أن يسيء، بأي صورة كانت، إلى قداستها، وإن رأى الحاكم في أي وقت ضرورة ترميم مكان مقدس أو بناء موقع ديني ما، فيجوز له أن يدعو الطائفة أو الطوائف المعنية إلى القيام بالترميمات اللازمة، ويجوز له القيام بهذه الترميمات، على حساب الطائفة أو الطوائف المعنية إن لم يتلق جواباً عن طلبه خلال مدة معقولة.

وجاء في الرابعة: لا تجبى أي ضريبة على مكان مقدس، أو مبنى أو موقع ديني كان معفى منها وقت إقامة المدينة (بوضعها الدولي) ولا يلحق أي تعديل في هذه الضريبة يكون من شأنه التمييز بين مالكي الأماكن والأبنية والمواقع الدينية أو

ساكنيها، أو يكون من شأنه وضع هؤلاء المالكين أو الساكنين من أثر الضريبة العام في وضع أقل ملاءمة مما كان عليه حالهم وقت تبني توصيات الجمعية العامة.

أرض فلسطين في المنظور الإسلامي:

منذ أن حررت فلسطين زمن الخليفة عمر، رضي الله عنه، من أيدي الرومان أصبحت إحدى ولايات الدولة الإسلامية. وقد سميت في البداية جند فلسطين. وأخذت مكانة مرموقة زمن الأمويين، حتى كادت أن تكون مدينة القدس أو الرملة عاصمة الدولة الأموية.

ومر العصر العباسي وفلسطين ولاية عربية من الولايات الهامة. وتعاقبت الدول والسلطنات حتى جاء الغزو الصليبي، ولم تستقر الأوضاع، وظلت المنطقة تشهد الحروب مع الصليبيين حتى حررت على يد صلاح الدين سنة 1187م، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى المماليك حتى جاء العثمانيون، وبقيت فلسطين ولاية عربية أو جزءاً من ولاية حتى الحرب العالمية الأولى.

ولو عدنا إلى مبدأ قرار التقسيم لوجدنا أنه يشكل جزءاً من حملة الغرب على أرض المسلمين لتفتيتها وتقسيمها. ولم يبرز مثل هذا المبدأ الغربي إلا بعد ضعف الخلافة الإسلامية والقضاء عليها. وخلال حكم الخلافة الإسلامية منذ صدر الإسلام حتى نهاية الخلافة العثمانية، كان الخليفة والعلماء المرجع في تقرير مصير العلاقات بين المسلمين وغيرهم من الأمم، وبالتحديد الرومان. ولم يكن المسلمون يسمحون لأي كان من غير العرب والمسلمين بالحديث عن وجود غريب في الأرض الإسلامية بغية التملك.

وبالنسبة لفلسطين كان الأمر أكثر حساسية؛ لما لهذه البقعة من قدسية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فعلى مدى قرون الدولة الإسلامية كان المساس بأرض فلسطين من المحرمات، ولم يخطر ببال خليفة أو سلطان أو أمير التنازل عن شبر من أرض فلسطين لأي كان. وقد اعتبرت لدى الخلفاء كافة أرض وقف إسلامي ليس لأحد الحق في ملكيتها، فهي ملك لله ولجميع أبناء الأمة الإسلامية. يحافظون عليها حفاظهم على أنفسهم، ويدافعون عنها وعن قدسيتها في حالتي السلم والحرب.

فقرار التقسيم الذي جاء في توصية الهيئة العمومية يقر باحتلال أرض إسلامية. وهذه الأرض هي فلسطين. ويعني ذلك أن المسلمين بشكل بدهي، مطلوب منهم رفض أي احتلال لبلادهم، والعمل على دفع المعتدي عن الأرض وتحريرها من أيدي المحتلين.

إن قرار التقسيم هجمة صليبية يهودية على ديار المسلمين، وقد غلّفته الصليبية بقرار من هيئة الأمم؛ للإيحاء بأن هناك إجماعاً أو شبه إجماع دولي عليه، ولكنه بالمقابل شبه إجماع صليبي صهيوني على احتلال أرض إسلامية. وماذا يعني المسلمين لو اجتمعت التوجهات الصليبية على احتلال أرض إسلامية سوى إذلال الأمة وغزوها في عقر دارها. وماذا يعنيها ذلك سوى استنفار أبنائها للجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض الإسلامية، التي تعرضت للاحتلال؟ ومتى كان المسلمون يقبلون بقرارات أو توصيات تفرض من أعدائهم على شعوبهم؟ فطبيعة المسلمين العقيدية والفكرية والسياسية تأبى على مر التاريخ الإسلامي، الإقرار بأي توجه يريد فرض تصورات غير إسلامية، على المنطقة وشعوبها. ولعل فرض الولايات المتحدة رؤيتها على أعضاء الجمعية العمومية آنذاك يعني شن الحرب على الإسلام والأمة الإسلامية، فهي تجمع الأمم غير الإسلامية لتقر اقتطاع أرض إسلامية، ومنحها لغير أهلها. ولو أن الأمتين العربية والإسلامية كانتا آنذاك في منعة وقوة وتوحد، لمنعتا مثل هذا القرار بالقوة. لكنهما كانتا ضعيفتين إلى حد الموات مقسمتين تعصف بهما الإقليمية والتخلف والفقر.

فلسطين في المنظور الوضعي وفي المنظور الإسلامي:

فلسطين في منظور قرار التقسيم أرض جغرافية متنازع عليها، وحل إشكالاتها يكون من خلال منظار دنيوي جغرافي. وإن تجاوز هذا المنظور الجغرافيا قليلاً قال بأن فلسطين لها مكانتها الدينية لدى طوائف ثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.

وفلسطين، حسب المنظور الإسلامي، مكان إسلامي تاريخاً وجغرافياً، ومقدس لله، لا يقرر مصيره إلا الله وحده والمسلمون أصحاب الأرض الذين يرتبطون بالمقدس الإلهي ارتباطاً وثيقاً. وفي الواقع فإن المقارنة بين القرارات الدولية والمنظور الإسلامي لفلسطين هو من المحال؛ لأن المنظور الإسلامي مستمد من المنظور القرآني الإلهي، والمنظور الإلهي منزَّه عن تصورات البشر والفلسفات الوضعية.

ولذلك فإن قرارات تصدر عما يسمى هيئة الأمم ومؤسساتها، تظل ضمن دائرة الفلسفة الوضعية البشرية القاصرة. فما بالنا إذا كانت هذه الفلسفة الوضعية من وضع أعداء الأمة الذين يقصدون استمرار الحرب الصليبية على أراضي المسلمين وديارهم؟

وهذا المنظور البشري قابل للتغيير والتبديل، حسب تغير الأمزجة، وتغير الظروف. والغريب في ذلك كله أن الضعفاء من الأمة العربية الإسلامية يظلون يتغنون بقرارات الأمم المتحدة وكأنها قدر إلهي منزل من السماء. وهو في حقيقته انتقاص فاضح لحق المسلمين بفلسطين. بل انتقاص واضح من حق القرآن الكريم على أبناء الأمة.

ماذا يعني قرار التدويل لمدينة القدس:

وباعتبار أن القرار الذي صدر ليقسم فلسطين ويذبحها من الوريد إلى الوريد ليشمل تقسيم القدس أيضاً، فإن هيئة الأمم غلفت قرار تقسيم القدس، بمصطلح التدويل الذي يعني تمهيداً لتقسيم القدس.

فقرار التدويل يعني إلغاء جذور القدس العربية الإسلامية. ويعني إلغاء كونها جزءاً من الدولة العربية الإسلامية على مدى ألف وأربعمائة سنة. ويعني أيضاً سلخها وسلخ علاقتها بالقرآن الكريم، وتحديداً بسورة الإسراء وبالآيات الأخرى، التي وصفت القدس وما حولها بالأرض المباركة. ويعني إلغاء دماء عشرات الألوف من المسلمين، الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم في سبيل تحرير فلسطين من الاحتلال الروماني أولاً، ومن الاحتلال الصليبي ثانياً، ومن الغزوة الصليبية اليهودية ثالثاً. ويعني أيضاً إلغاء الفتح العمري الإسلامي لهذه الأرض العربية المباركة، وإلغاء جهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين والقائد صلاح الدين والظاهر بيبرس ضد الصليبيين الذين احتلوا فلسطين وحاولوا استيطانها واستعمارها. فالتدويل يعني إلغاء كل ما يتعلق بتاريخ الدولة الإسلامية تجاه فلسطين والقدس، من عمارة وأوقاف ومشاريع ومدارس وعلماء وفقهاء.

وإذا نظرنا إلى بنود القرار الذي صدر عام 1947 بشأن الأماكن المقدسة رأينا، وبشكل جلي، الانتقاص الكامل من حق المسلمين، وفتح الباب على مصراعيه لليهود للتحرك نحو الاستيلاء على المقدسات الإسلامية.

فالقرار لا يوضح ما للمسلمين من أماكن مقدسة، وقصد أن يظل غامضاً، من هذه الناحية، لأن اليهود يفسرونه حسب رؤيتهم، وهذا التفسير يقول إن الهيكل الذي اندثر وأقيم عليه المسجد الأقصى يجب أن يعاد بناؤه، حسب نص هذا القرار (الفقرة التي تقول: إن رأى الحاكم في وقت ضرورة ترميم مكان مقدس، أو بناء موقع ديني) وحسب نص القرار فإن حائط البراق يصبح حائط المبكى. ومن حق اليهود ترميمه، أو بناء مكان ديني جديد خاص باليهود بالقرب منه، يكون هذا الحائط جزءاً من البناء الذي قد يكون الهيكل الثالث، وهذا القرار لم يبين حدود الأماكن المقدسة، وما فيها من معالم، كقبة الصخرة، والمسجد الأقصى، والقباب الأخرى، وكذلك ساحة الحرم والمدارس الدينية الملحقة بالحرم القدسي الشريف.

وحسب نص القرار، فإن أراد اليهود بناء مكان ديني جديد، أو أرادوا ترميم ما يسمى حائط المبكى، فإن لهم الحق في أن يرمموا دون الرجوع إلى الحاكم أو الطوائف الأخرى في حالة عدم تلقي جواب عن طلبهم. ومن الطبيعي أن المسلمين يرفضون، بشكل قاطع، أن يقوم اليهود ببناء معبد لهم على أنقاض معبد إسلامي أو رمز معماري إسلامي، أو ترميم جدار هو في الأصل من حقهم وليس من حق اليهود.

إن قراراً مثل هذا القرار ليس من شأنه أن يوضح ما هي الأماكن الإسلامية المقدسة، ولو أن كاتبي القرار كانوا من ذوي النوايا الحسنة والطيبة لأوضحوا بالاسم ما هي الأماكن الإسلامية المقدسة. ولكن دهاة صناع القرار من صليبيين متصهينين يدركون أن هذه التسميات من شأنها أن تلغي كل المزاعم اليهودية من أن الحرم القدسي الشريف قد أقيم على أنقاض الهيكل المزعوم.

والواضح أن ما دفع الولايات المتحدة لأن تجعل هيئة الأمم تصدر قرارها بشأن تقسيم فلسطين وتدويل القدس، هو العداء للمسلمين وأرض العرب والإسلام. فالتاريخ الإسلامي لفلسطين رخيص في نظرهم حتى إنهم تجاهلوه تماماً. فبأي حق يقسمون فلسطين ويدولون القدس؟ فهذا القرار في منظورنا الإسلامي هو تمهيد لجعل فلسطين ـ كياناً يهودياً ـ يطلقون عليه إسرائيل، وتمهيد لجعل القدس منطقة تخضع لليهود والأميركيين وغيرهم من حلفاء صليبيين. وهذا ما حصل فعلاً؛ لأن قرارات

أميركا والدول الصليبية الاستعمارية المساندة والداعمة في مجملها دعم بالقول والفعل لقيام الكيان الصهيوني وتقويته إلى حد يتفوق فيه على العرب والمسلمين.

ماذا يعني أن تشرف أميركا والاستعمار الغربي على صياغة مثل هذا القرار - قرار تقسيم فلسطين وتدويل القدس - أليس هو تمهيداً لقرار الكونغرس الأميركي بعد خمسة وخمسين عاماً، القاضي بالاعتراف بالقدس كلها عاصمة للكيان الصهيوني؟

فالقرار الذي أقره الكونغرس الأميركي وصادق عليه الرئيس بوش بتاريخ 1/ 10/ 2002، حظي بالأغلبية الساحقة لمجلس الكونغرس الأميركي - النواب - الشيوخ - وحين ننظر لهذا القرار، وكيف اتخذ، وكيف صادق عليه بوش على شاشات التلفاز، ندرك للمرة بعد الألف مدى الحقد الصليبي الأميركي على ديار المسلمين. فعندما صادق بوش على القرار قام أعضاء مجلس الشيوخ والنواب ولم يقعدوا وهم يصفقون بحرارة بالغة، وكأنهم كسبوا نصراً مؤزراً على المسلمين وديار الإسلام.

إن ذلك يعني المباشرة بنقل سفارة الولايات المتحدة من تل الربيع إلى مدينة القدس. ويعني فتح الباب أمام دول الغرب كي يعترفوا بالقدس عاصمة للكيان الصهيوني. ويعني ذلك أيضاً إعطاء الضوء الأخضر للكيان الصهيوني، كي يشرع بهدم المسجد الأقصى وتصفية كل الآثار الإسلامية في مدينة القدس. ومن ثم إقامة الهيكل؛ حتى يكون لليهود والأميركيين ومن لف لفهم.

وهنا لابد من وقفة متأنية عند النصوص القرآنية التي توضح موقف المعادين لله ولدينه ونبيه وأمته الإسلامية، والموقف الإسلامي منهم فيما يخص شؤون المسلمين وأراضيهم ومقدساتهم، فقرار تقسيم فلسطين قرار أميركي غربي وليس قراراً إلهياً منزلاً أو قراراً إسلامياً. وبمعنى آخر هو قرار أعداء الأمة الإسلامية.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ آل عمران 73.

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ المائدة 57.

واستناداً إلى الشريعة الإسلامية ونصوصها فقد أجمع علماء الأمة على أن الاعتداء على فلسطين واحتلال أرضها اعتداء على الإسلام وأمته وأرضه. وهذا الاعتداء إن كان على جزء من الأرض، أو كلها هو اعتداء صارخ بكل الوجوه. وقرار التقسيم أجاز لليهود ما ليس من حقهم، وهو اعتداء على جزء من الأرض الإسلامية، يستوجب الجهاد بالمال والأنفس حتى يتحرر.

في عام 1987 اجتمع المجمع الفقهي الإسلامي وانعقد في مكة المكرمة في دورته العاشرة في 24 صفر 1408هـ الموافق 17/ 10/ 1987م وجاء فيه: إن المجلس يقرر جواز صرف بعض أموال الزكاة لهذا الجهاد الإسلامي، وينادي المسلمين أن يبادروا خفافاً وثقالاً للاستنفار لتأييد شعب فلسطين في هذا الجهاد وهذه المعركة التي هي معركة الإسلام في هذا العصر، ووصية المجلس للشعب الفلسطيني المؤمن المجاهد أن يتمسكوا بحبل الله المتين، ويواصلوا جهادهم الإسلامي المبارك، لإعلاء كلمة الله، وحماية المسجد الأقصى المبارك، ويعتصموا بالله هو مولاهم، نعم المولى ونعم النصير[1].

وأصدرت دار الإفتاء المصرية فتاوى تحت عنوان "الصلح مع اليهود في فلسطين والمعاهدات مع الدول الاستعمارية المعادية للعرب والمسلمين المؤيدة لليهود في عدوانهم ما نصه:

المبادئ:

1 ـ هجوم العدو على بلد إسلامي يوجب على أهلها الجهاد ضده بالقوة وهو في هذه الحالة فرض عين.

2 ـ يتعين الجهاد في ثلاثة أحوال: عند التقاء الزحفين أو عند نزول الكفار ببلد، وعند استنفار الإمام القوم للجهاد، حيث يلزمهم النفير.

3 ـ الاستعداد للحروب الدفاعية واجب على كل حكومة إسلامية.

---

(1) سيد عبد العظيم: تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ص 207 ـ 208.

4 ـ ما فعله اليهود بفلسطين، اعتداء على بلد إسلامي، يوجب على أهله أولاً، رده بالقوة كما يوجبه ذلك ثانياً، على كل مسلم في البلاد الإسلامية.

5 ـ الصلح مع اليهود على أساس رد ما اعتُدي عليه إلى المسلمين جائز، أما إن كان على أساس تثبيت الاعتداء فهو باطل شرعاً.

وقد أجابت الفتوى بقولها: إن اليهود اقتطعوا جزءاً من أرض فلسطين، وأقاموا فيه حكومة لهم، غير إسلامية، وأجلوا عن هذا الجزء أكثر أهله من المسلمين.

وأما ما يجب على المسلمين في حالة العدوان على أي بلد إسلامي فلا خلاف بين المسلمين في أن جهاد العدو بالقوة في هذه الحالة فرض عين على أهلها، وإن كان الصلح مع العدو على إقرار الاعتداء وتثبيته، فإنه يكون صلحاً باطلاً لأنه إقرار لاعتداء باطل وما يترتب على الباطل، هو باطل مثله.

وصدرت هذه الفتوى عام 1956 م أي قبل أن يحتل الجيش الصهيوني القدس كاملة والضفة الغربية وقطاع غزة.

وبعد احتلال القدس ووقوع المسجد الأقصى تحت نير الاحتلال، نظر علماء المسلمين للمسألة بمنظار أكثر دقة وأكثر تصلباً، لأن احتلال القدس بما فيها المسجد الأقصى يعتبر جريمة نكراء بحق المقدسات الإسلامية منذ مطلع البشرية حتى الآن.

من هذه الفتاوى فتوى أصدرها الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في بداية عام 2001 جاء فيها: مما ثبت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة أن الجهاد لتحرير أرض الإسلام ممن يغزوها ويحتلها من أعداء الإسلام، واجب محتم، وفريضة مقدسة، على أهل البلاد المغزوة أولاً ثم على المسلمين من حولهم، إذا عجزوا عن مقاومتهم، حتى يشمل المسلمين كافة. فكيف إذا كانت هذه الأرض الإسلامية المغزوة هي القبلة الأولى للمسلمين، وأرض الإسراء والمعراج وبلد المسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله؟ وكيف إذا كان غزاتها هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؟ وكيف إذا كانت تساندها أقوى دولة في الأرض اليوم، وهي الولايات المتحدة الأميركية، كما يساندها اليهود من أنحاء العالم، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الحرمات، ودمروا البيوت، وأحرقوا المزارع، وعاثوا في

الأرض فساداً؟. هذا الجهاد هو فريضة الفرائض، وأول الواجبات على الأمة الإسلامية في الشرق والغرب[1].

وقد سمعنا أكثر العلماء المسلمين يفتون بوجوب الجهاد على أنه فرض عين، خاصة بعد أن أقدم رئيس وزراء العدو شارون، على تدنيس ساحة الحرم القدسي الشريف.

وباعتبار أن قرار التقسيم يقر باحتلال أرض إسلامية فإن العلماء المسلمين ألحقوا فتاويهم بفتاوى أخرى، تحرم الصلح مع اليهود لأنهم يحتلون هذه الأرض الإسلامية. وقد أقر العلماء في الأزهر برئاسة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية أن الصلح مع اليهود حرام، لأنهم يحتلون القدس وأرضاً إسلامية. تقول الفتوى:

إن الصلح مع «إسرائيل» كما يريده الداعون إليه، لا يجوز شرعاً، لما فيه من إقرار الغصب على الاستمرار في اغتصابه، والاعتراف بحقية يده على ما اغتصبه، وتمكين المعتدي من البقاء على عدوانه. وقد أجمعت الشرائع السماوية والوضعية على حرمة الغصب ووجوب رد المغصوب إلى أهله، وحث صاحب الحق على الدفاع والمطالبة بحقه. فلا يجوز للمسلمين أن يصالحوا هؤلاء اليهود الذين اغتصبوا أرض فلسطين، واعتدوا فيها على أهلها وعلى أموالهم، على أي وجه يمكِّن اليهود من البقاء كدولة في أرض هذه البلاد الإسلامية المقدسة. بل يجب عليهم أن يتعاونوا جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم، لرد هذه البلاد إلى أهلها، وصيانة المسجد الأقصى مهبط الوحي، ومصلى الأنبياء الذي بارك الله حوله، وصيانة الآثار والمشاهد الإسلامية، من أيدي هؤلاء الغاصبين.

أما الشيخ المجتهد محمد الحسين كاشف الغطاء إمام الجعفرية في النجف، فقد أفتى حول الصلح مع اليهود وحول الجهاد في سبيل الله لتحرير فلسطين والأقصى، وجاء في فتواه:

(من واجب المسلمين جميعاً في سائر الأقطار، أن يقاطعوا اليهود ومن يحميهم ويساعدهم، ومن يشتر من اليهود أو يبعْهم، أو يروجْ صنائعهم أو يلبسْ منتوجاتهم، أو يأكلْ من حاصلاتهم، أو يعاملهم بأي معاملة تجارية، أو غيرها فقد حارب الله

(1) جريدة المجد الأردنية 2/ 1/ 2001.

ورسوله، وباء بغضب من الله ورسوله)، وقد خان الحق، وطعن في قلب العرب والإسلام، بل خرج من دين الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المائدة 51.

وقد أصدرت لجنة الإفتاء في الأزهر فتوى تحرم بيع أراضي فلسطين لليهود، ووجوب مقاطعتهم، وعدم التعامل معهم، وأن كل من يستبيح بيع الأراضي بفلسطين لليهود أو للتعامل معهم بالشراء من متاجرهم أو ترويج بضاعتهم ومنتوجاتهم يكون مرتداً، عن الدين خارجاً عن زمرة المسلمين.

وجاء في الفتوى: تفيد اللجنة بأن من أعظم الجرائم إثماً، وأشد المنكرات مقتاً عند الله أن يتخذ المسلم له أولياء من أعداء دينه، المناوئين له، المعتدين على أهله، أو يمكن لهم بفعله من إيذاء المسلمين، في دينهم والاحتيال على سلب أموالهم وتجريدهم من أرضهم وديارهم، واتخاذ ذلك وسيلة إلى إضعاف أمرهم، وكسر شوكتهم وإزالة دولتهم، وإقامة دولة غير إسلامية، تتسلط عليهم بالحيلة والقهر، ونشر سلطانها. وقد شدد الله النكير على من يتولون أعداء الدين أو يتخذون لهم بطانة من غير المؤمنين[1].

وقد أصدر العلماء المختصون بشؤون الإفتاء والشريعة الإسلامية في الأردن فتوى بتاريخ 19/ 8/ 1999م جاء فيها:

(إن بيع الأملاك المنقولة في الأردن أو تأجيرها لليهود محرم شرعاً، وحذرت من العملاء والسماسرة، الذين يعملون على تسهيل بيع أراضي المسلمين، للمحتلين الغاصبين، الذين ينتهكون ويدنسون مقدسات المسلمين، ويرتكبون المجازر في بيوت الله، ويمنعون المسلمين حتى من أداء الصلاة في المساجد، ويخططون لتدمير المسجد الأقصى، بعد أن نجحوا في تحويل الجزء الأكبر من الحرم الإبراهيمي إلى كنيس يهودي. وأشارت الفتوى إلى أن احتلال فلسطين، بدأ بفتح باب بيع الأراضي لليهود على أيدي السماسرة الذين ليسوا من أهل فلسطين، ما مكن اليهود من إقامة دولة غير شرعية على أرض فلسطين «نشرت الفتوى في صحيفة المجد الأردنية بـ 20/ 8/ 1999م».

---

(1) مختصر فتاوى دار الإفتاء المصرية صفحة 382 تحت عنوان الصلح مع اليهود.